جامعة النيلين

كلية الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

بحث بعنوان :

الشكوى في الشعر الأندلسي

(عصر المرابطين أنموذجاً)

بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية

إعداد: صفاء النور علي النور

إشراف الدكتورة: سلوى عثمان أحمد محمد

للعام 1438 هـ ــ 2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

صدق الله العظيم

سورة يوسف

الآية ﴿86-87﴾

إهداء

إلى من سهرت ورفعت الأكف بالدعاء ليلاً ونهاراً

إلى من كانت لي شمعة يحترق بدنها وتفيض دموعها لكي تضيء لي معالم الطريق

أمي

إلى الصرح الشامخ الذي أعتزُّ به

إلى الذي علمني الثبات والوقوف على المحن

إلى الذي حمل أعباء الحياة من أجل تربيتي وتعليمي.. ووصولي إلى هذا المستوى يكفيني فخراً أن أحمل اسمه

أبي

إلى روضة الحب التي تنبت أزكي الأزهار

أختي

إلى أحبائي إلى من يملأون عليّ حياتي بهجةً وسعادة

إلى من تطيب الحياة برؤيتهم

إلى من أشد بهم أزري وتقوى بهم عزيمتي

إخواني

الباحثة

شكر و عرفان

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فالشكر لله سبحانه وتعالى أن وفقني حتى أتيتُ خواتيم هذا العمل المتواضع، كذلك أزجي الشكر الجزيل إلى الدكتورة/ سلوى عثمان أحمد محمد التي تفضلت بقبول الإشراف على بحثي هذا، وأحاطتني بالتوجيه والتقويم بتذليل كل الصعوبات التي اعترضت طريقي.

الشكر والعرفان للدكتور/ خالد بابكر هاشم الدرديري الذي ظل يرعى هذا البحث بعناية فائقة وروح علمية جزاه الله خير الجزاء.

كذلك أتقدم بالشكر لجامعة النيلين على إتاحتها لي فرصة الدراسة بالكلية، وجميع أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة وخارجها، من الذين دأبوا على خدمة العلم ورعاية حقوقه.

الله أسأله العون والتوفيق والهداية وأن يجعل هذا الجهد في ميزان حسناتي.

الباحثة

المستخلص

البحث بعنوان: (الشكوى في الشعر الأندلسي"عصر المرابطين أنموذجاً)، تناول البحث في الفصل الأول: مفهوم الشكوى في اللغة والاصطلاح، وتم تقسيم هذا الفصل إلى مبحثين: المبحث الأول تعريف الشكوى لغةً واصطلاحاً. والمبحث الثاني الأسباب والدوافع التي أدت إلى الشكوى في العصر الأندلسي، أما الفصل الثاني فتناول التعريف بدولة الأندلس وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين، المبحث الأول، قيام دولة المرابطين وزوالها، المبحث الثاني نبذة عن حياة الأندلسيين،الحياة الاجتماعية، الطبقات الدنيا والعليا، أما الفصل الثالث فتناول الدراسة التطبيقية واختيار النصوص واشتمل على مبحثين، المبحث الأول الشكوى الذاتية الطابع، المبحث الثاني الشكوى القومية الطابع،كما هدف البحث في ان شعر الشكوى كان مزدهرا عمليا وأدبيا في العصر الأندلسي، وكذلك أن أهل الأندلس طيلة ثمانية قرون متلاحقة كانوا يعيشون في تيار من القلق والحذر الأمر الذي جعل ذلك كله ينعكس على الشخصية الأندلسية.وكما أوضحت أهمية الموضوع التي تتمثل في تعريف مفهوم الشكوى لغة واصطلاحاً، والأسباب والدوافع التي أدت للشكوى في العصر الأندلسي.

وقد خلصت هذه الدراسة ببعض النتائج والتوصيات أهمها: الشاعر الأندلسي عانى من مرارة الهجران ووجع الشكوى، كما عانى من التعاسة والخوف والغربة والحنين، تعدد هذه العلل مثَّل أرضاً خصبة لقول الشعر المملوء بالشكوى. إذا كان الشعر تعبيراً عن العواطف أو هو فيضٌ تلقائي لمشاعرٍ قوية، فإن الشاعر الأندلسي قد سخر فكره ليكون مرآة عاكسة لما كان بدواخله أو مكنوناته، وهي مكنونات قد أصابها القلق، فكان ذلك العطاء صورة صادقة لما في النفس، أو لما كان ذلك الشاعر يشعر به، وهذا العطاء قد جعلنا وكأننا نعايش أولئك القوم بما هم فيه. ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث.

Abstract

The study entitled: "Complaint in Andalusian Poetry", discussed the first chapter: the concept of complaint in language and terminology. This chapter was divided into two sections: The first topic defines the complaint as a language and a term. The second chapter deals with the definition of the state of Andalusia. The second chapter deals with the definition of the state of Andalusia. This chapter included two topics: the first topic, the establishment of the Almoravid state and its demise, the second section about the life of the Andalusians, social life, the lower and upper classes. The second topic deals with the applied study and the choice of texts. It included two topics. The first topic is the self-complaint. The second topic is the national complaint of nature. The aim of the research is that the complaint was practically and practically thriving in the Andalusian era. They were living in a stream of anxiety and caution, which made all this reflected on the Andalusian personality. She also explained the importance of the subject of the definition of the concept of complaint language and terminology, and the reasons and motives that led to the complaint in the Andalusian era.

This study concluded with some of the most important conclusions and recommendations: The Andalusian poet suffered the bitterness of abandonment and the pain of complaining. He also suffered from misery, fear, alienation and nostalgia, the multiplicity of these ills as a fertile ground to say poetry full of complaint. If poetry is an expression of emotions or an automatic influx of strong feelings, the Andalusian poet has ridiculed his thought to be a reflective mirror of what he had in his intestines or machinations, which he was worried about. This tender was a true image of the soul, or what that poet felt , And this tender has made us feel like we are living with those people. Then a list of sources and references adopted by the researcher.

الفصل الأول

ضبط مفاهيم البحث

المبحث الأول : مفهوم الشكوى لغةً واصطلاحاً

المبحث الثاني : أسباب ودوافع الشكوى في العصر الأندلسي

المقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فمهما كتب الدارسون عن الأندلس ذات الطبيعة الساحرة الخلابة، بسهولها الخضراء، وجبالها المكسوة بالأشجار، وأنهارها المتدفقة، ومياهها العذبة، ونسيمها العليل ستظل الأندلس في حاجة إلى من يقرِّبها أكثر للأجيال الصاعدة.

لعلَّ هذا البحث يعد محاولة لتسليط الضوء على الأسباب والدافع التي أدت إلى الشكوى في العصر الأندلسي.

حاولت في هذه الدراسة أن أقدِّم نبذة عن حياة الأندلسيين (الحياة الاجتماعية، الطبقات الدنيا والعليا) وكيف دخل المرابطون الأندلس، وبداية قيام دولة المرابطين وزوالها.

هذا وقد أفدت من هذه الدراسة الأندلسية كثيراً حيث فتحت مداركي على بعض الجوانب التي كنت غافلة عنها.

موضوع الدراسة:

الشكوى في الشعر الأندلسي . عصر المرابطين أنموذجاً

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية البحث في التعريف بمفهوم الشكوى لغة واصطلاحا ، والأسباب والدوافع التي أدت إلى الشكوى في العصر الأندلسي.

أسباب اختيار الموضوع:

نسبة لعدم وجود دراسات في هذا الموضوع آثرت الباحثة البحث فيه رغبة في الإضافة.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تناول موضوع الشكوى في الشعر الأندلسي من خلال تحليل نصوص الشكوى.

أولاً: إن شعر الشكوى كان مزدهراً علمياً وأدبياً في العصر الأندلسي ، كذلك نجد ازدهاراً كبيراً في كل الفنون الأدبية.

ثانياً: إن أهل الأندلس طيلة ثمانية قرون متلاحقة كانوا يعيشون في تيار من القلق والحذر الأمر الذي جعل ذلك كله ينعكس على الشخصية الأندلسية.

ثالثاً: وجود الكثير من العلل التي عانى منها الإنسان الأندلسي، حيث سببت له توتراً أدى إلى عدم الاستقرار النفسي في ما أنشد من شعر.

فوائد البحث:

1/ يقدم موضوع الشكوى في الشعر الأندلسي

2/يقدم الأشعار التي وردت بها شكوى في عصر المرابطين .

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة الدراسة في أن هناك أشعاراً كثيرة متناثرة في دواوين شعراء الأندلس بها شكوى، وتحتاج إلى من يجمعها في سفر واحد محللة ومفصلة.

أسئلة البحث:

1. هل في الشعر الأندلسي شكوى؟
2. هل هي ظاهرة شاعت وتستحق الدراسة؟

منهج الدراسة :

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حدود البحث:

الحدود المكانية: وهي التي أُلفت في دواوين الشعراء الأندلسيين في عصر المرابطين وكتب المختارات الشعرية التي وردت فيها أشعار شكوى .

الحدود الزمانية: هي الفترة التي تمتد من بداية عصر المرابطين الى سقوط دولتهم .

الدراسات السابقة:

لم أجد دراسة تناولت هذاالموضوع تحت هذا العنوان وبنفس تلك الكيفية التي سأتناوله بها، وإنما هناك دراسات في موضوعات أخرى غير الشكوى وتناولت أغراضاً وقد تأتي ابيات شكوى ضمن تلك الاغراض ، ولكنها لم تكن مقصودة لذاتها .

هيكل البحث

الفصل الأول: ضبط مفاهيم البحث

المبحث الأول: مفهوم الشكوى لغة واصطلاحاً

المبحث الثاني: أسباب ودوافع الشكوى في العصر الأندلسي

الفصل الثاني: التعريف بدولة الأندلس وعصر المرابطين

المبحث الأول:قيام دولة المرابطين وزوالها

المبحث الثاني: نبذة عن حياة الأندلسيين، الطبقات الدنيا والعليا، الحياة الاجتماعية

الفصل الثالث: الدراسة التطبيقية

المبحث الأول: الشكوى الذاتية الطابع

المبحث الثاني:الشكوى القومية الطابع

خاتمةالبحث تشمل:

- ملخص البحث
- النتائج
- التوصيات

المبحث الأول

مفهوم الشكوى لغةً واصطلاحاً

أولاً: مفهوم الشكوى لغةً واصطلاحاً:

الشكوى تعبير عن آلام الإنسان المكنونة وأحزانه المؤلمة ومشكلاته التي يواجهها في الحياة نفسية كانت أو اجتماعية أو سياسية. أولاً: نوضح مفهوم الشكوى لغة لإدارك دلالات الشكوى المختلفة من الاشتقاقات المتعددة، وثانياً: نتناول مفهوم الشكوى في الاصطلاح في ضوء آراء العلماء والأدباء.

أ. مفهوم الشكوى لغة:

يقول الخليل الفراهيدي: [1](شكو، الشكوى: الاشتكاء تقول: شكا يشكو شكاة، ويستعمل الاشتكاء في الموجدة والمرض هو شاكٍ مريض.

قد تشكى واشتكى وشكا إلى فلان فلاناً، فأشكيته أي: أخذت ما يرضاه والشكوى المرض نفسه.[2]

ويزيد الجوهري (ت 393هـ): (أشكيته إذا أعتبته من شكواه ونزعت عن شكايته وأزلته عما يشكوه، وهو من الأضداد قال الراجز:

تمد بالأعناق أو تلويها وتشتكي لو أننا نشكيـها [3]

ويذكر الزبيدي مضيفاً أن الشكاية معناها الإخبار بضعف حاله، وشكا فلاناً: إذا أخبره بسوء فعله به. ثم ينقل القول الراغب إن الشكاية إظهار البث يقال شكوت

([1]) الخليل بن احمد الفراهيدي ابو عبدالرحمن الامام، صاحب العربية ومنشئ علم العروض البصري احد الاعلام ولد في البصرة عام (100هـ) ونشأ عابداً لله تعالى، مجتهداً في طلب العلم، واسع المعرفة شديد الذكاء توفي سنة 170هـ،

([2]) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة – إيران، ط2، 1409هـ في مادة (شكو)، ج5، ص 388.

([3]) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ - 1987م،مادة (شكو)، ج6، ص23.

وأشكيت وأصل الشكو فتح الشكوة وإظهار ما فيها وهي سقاء صغير، وكأنه في الأصل استعارة كقولهم: بثثت له ما في وعائي، ونفضت له ما في جرابي إذا أظهرت ما في قلبك.

من أصحاب المعجم الوسيط فيكتبون: (اشتكى) شكا ومرض واتخذ الشكوة ولجأ إليه ليزيل شكواه.

(تشاكى) القوم شكا بعضهم إلى بعض، وتشكى أي اشتكى والشكاة أي الشكوى والمرض والعيب.

ويظهر من كل هذا الكلام أن جميع الاشتقاقات لكلمة الشكوى تؤدي معنى الوجع والألم والحزن والمرض والعيب وإظهار ما يبث في الإنسان وإخبار بسوء الفعل به إلا أن كلمة اشكى بإضافة الهمزة تفيد إزالة هذا الحزن والهم ما يرضى به الإنسان[1].

ب. مفهوم الشكوى اصطلاحاً:

إن الشكوى ميل فطري عند الإنسان يلجأ إليه عند الشعور بالألم أو الحزن أو اليأس وما يوافق ذلك من إحساس بالاضطهاد أو الطغيان أو الظلم أو الاضطراب في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ويخرج الإنسان عن هذا الشعور لدفع الظلم الواقع عليه من الأفراد أو المجتمع[2]1.

قال ابن الأثير: وهذا الحديث يذكر في مواقيت الصلاة لأجل قول أبي إسحق أحد رواته: قيل له في تعجيلها فقال: نعم، والفقهاء يذكرونه في السجود، فإنهم كانوا يضعون أطراف ثيابهم تحت جباههم في السجود من شدة الحر، فنهوا عن ذلك، وأنهم لما شكو إليه ما يجدونه من ذلك لم يسمح لهم أن يسجدوا على طرف ثيابهم. واشتكيته مثل شكوته[3]

---

[1] المصدر السابق : ص 23

[2] الرائد معجم لغوي عصري، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1964م، ص879[1]

[3] لسان العرب ،ابن منظور ، دار الحديث ، القاهرة ، ج5 ، ص 173

الشكو 1 . مص. شكا 2 . المرض

3- الجمل الصغير

الشكوى – ج شكاوى 1 – مص – شكا –

2- التوجع. 3- ما يشكى منه

الشكواء: المرض

الشكوة: ج شكاء وشكاء وشكوات وشكى وشكي – المرة من شكا 2- المرض

3- وعاء صغير من جلد الماء واللبن

الشكي. 1. المشكو 2. الذي يشتكي

3. الموجع 4. من يمرض أقل مرض وأهونه

الشكية – ج شكايا 1. ما يشكى منه 2. البقية

الشكية – وعاء صغير من جلد الماء واللبن[1].

شكا: شكا الرجل أمره يشكو شكواً، على فعلاً، وشكوى على فعلى، وشكاة وشكاوة وشكاية على حد القلب كعلاية، إلا أن ذلك علم فهو أقبل للتغيير.

السيرافي: إنما قلبت واوه ياءً؛ لأن أكثر مصادر فعالة من المعتل إنما هو قسم الياء نحو الجراية والولاية والوصاية، فحملت الشكاية عليه لقلة ذلك في الواو. وتشكى واشتكى: كشكا. وتشاكى القوم: شكابعضهم إلى بعض. وشكوت فلاناً أشكوه شكوى وشكاية وشكية وشكاة إذا أخبرت عنه بسوء فعله بك، فهو مشكو ومشكى، والاسم الشكوى[2].

([1])الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تح قيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1407هـ - 1987م،مادة (شكو)، ج6، ص23.

[2]لسان العرب ،ابن منظور ، مادة شكو ، ص 173

قال بن بري: الشكاية والشكية إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه، والاشتكاء إظهار ما بك من مكروه أو مرض ونحوه، وأشكيت فلاناً إذا فعلت به فعلاً أحوجه إلى أن يشكوك، وأشكيته أيضاً إذا أعتبته من شكواه ونزعت عن شكاته وأزلته عما يشكوه، وهو من الأضداد، وفي الحديث: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حر الرمضاء فلم يشكنا) أي شكوا إليه حر الشمس وما يصيب أقدامهم منه إذا خرجوا إلى صلاة الظهر، وسألوه تأخيرها قليلاً فلم يشكهم، أي لم يجبهم إلى ذلك ولم يزل شكواهم، ويقال: أشكيت الرجل إذا أزلت شكواه وإذا حملته على الشكوى.

في حديث ضبة بن محصن قال: (شاكيت أبا موسى في بعض ما يشاكي الرجل أميره، فاعلت من الشكوى)، وهو أن تخبر عن مكروه أصابك والشكو والشكوى والشكاة والشكاء كله: المرض، قال أبو المجيب لابن عمه: (ما شكاتك يا بن حكيم؟ قال له: انتهاء المدة وانقضاء العِدة).

الليث: الشكو والاشتكاء، تقول: شكا يشكو شكاة، يستعمل في الموجدة والمرض ويقال: هو شاكٍ مريض، الليث: الشكو المرض نفسه، وأنشد:

وأخي إن تشكى من أذى كنت طبه وإن كان ذاك الشكو بي فأخي طبي

اشتكى عضواً من أعضائه وتشكى بمعنىً. وفي حديث عمرو بن حريث: دخل على الحسن في شكوٍ له، هو المرض، وقد شكا المرض شكواً وشكاة أقل المرض وأهونه. والشكي: الذي يشتكي والشكا الشكي: المشكو وأشكى الرجل: أتى اليه ما يشكو فيه به[1].

(1) لسان العرب، ابن منظور،مادة(شكو) دار الحديث، القاهرة، ص174

أشكاه: نزع له من شكايته وأعتبه. قال الراجز يصف إبلاً قد أتعبها السير، فهي تلوي أعناقها تارة وتمدها أخرى وتشتكي إلينا فلا نشكيها، وشكواها ما غلبها من سوء الحال والهزال فيقوم مقام كلامها، قال:

تمد بالأعناق أو تثنيها وتشتكي لو أننا نشكيها

قال أبو منصور:

للاشتكاء معنيان آخران: قال أبو زيد: شكاني فلان فأشكيته إذا شكاك فزدته أذى وشكوى.

وقال الفراء: أشكي إذا صادف حبيبه يشكو، وروى بعضهم قول ذي الرمة يصف الربع ووقوفه عليه:

وأشكي، حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

قالوا معنى أشكيه أي أبثه شكواي وما أكابده من الشوق إلى الظاعنين عن الربع حين شوقتني معاهدهم فيه إليهم، وأشكي فلاناً من فلان أخذ له منه ما يرضى.

شكى فلان فلاناً إلى فلان يشكوه شكوى وشكوىً (بالتنوين بناءً على أن الألف للإلحاق وبدونه على أنها للتأنيث) وشكاة وشكاوة وشكية وشكاية (واوي) تظلم إليه وأخبره عنه بسوء فعله به، فالمخبِر شاكٍ والمخبَر عنه مشكو ومشكيٌ. والخبر الشكوى، والمخبر مشكوٌ إليه ومشتكي والأول هو القياس وعليه قول الشاعر:

سيلتقي كلُّ مظلومٍ وظالمه منا ويجتمع المشكو والشاكي [1]

(1) المحيط، بطرس البستاني، دون مكان نشر، دون ناشر، ص1114.

(شكا) شكوت فلاناً أشكوه شكوى وشكاية وشكية وشكاة، إذا أخبرت عنه بسوءِ فعله بك، فهو مشكوٌ ومشكيٌ، والاسم الشكوى، وأشكيتُ فلاناً، إذا فعلت به فعلاً أحوجه إلى أن يشكوك، وأشكيته أيضاً، إذا أعتبته من شكواه، ونزعت عن شكايته وأزلته عما يشكوه، وهو من الأضداد وأشكيته مثل شكوتُه واشتكى عضواً من أعضائه وتشكى بمعنىً، واشتكى أي اتخذ شكوة.[1]

في حديث خباب بن الارت: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرمضاء فما شكانا)، أي ما أذن لنا بالتخلف عن صلاة الظهيرة وقت الرمضاء. قال أبوعبيدة: (أشكيت الرجل أي أتيت إليه ما يشكوني، وأشكيته إذا شكى إليك فرجعت له من شكايته إياك إلى ما يحب).

ابن سيده: وهو يشكي بكذا أي يتهم ويزن حكاه يعقوب في الألفاظ فأنشد:

قالت له بيضاء من أهله ملل رقراقة العينين تشكي بالغزل

وقال مزاحم:

خليلي هل بادٍ به الشيب إن بكى وقد كان يشكي بالعزاء ملول [2]

قال الفراء: المشكاة: الكوّة التي ليست بنافذة.

ورجل شاكي السلاح، واذا كان ذا شوكة وحد في سلاحه.

([1]) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، محمد حلمي المنياوي، 191047، ص2394 – 2395.

([2]) لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ج5، ص174.

قال الأخفش: هو مقلوب من شائك.

والشكي: الذي يشتكي والشكي أيضاً المشكو. والشكي أيضاً الموجع قال الطرماح:
وسمي شكي ولساني عارم.

وسمي: من السمة

والشكوة من جلد الرضيع وهو اللبن، فإذا كان جلد الجذع فما فوقه سمي وطباً

والشكي في السلاح معرب.[1]

ابن سيده: كل كوةٍ ليست بنافذة.

مشكاة: ابن جني: ألف مشكاة منقلبة عن واو، بدليل أن العرب قد تنحو بها منحاة الواو كما يفعلون بالصلاة التهذيب وقوله تعالى: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سورة النور (الآية 35).

العرب تقول: سل شاكي فلان أي طيِّب نفسه وعزه عما عراه ويقال: سليت شاكي أرض كذا وكذا أي تركتها ولم أقربها، وكل شيء كففت عنه فقد سليت شاكيه.

في حديث النجاشي: (إنما يخرج من مشكاة واحدة، المشكاة: الكوة غير النافذة)، وقيل هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل، أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد [2].

([1]) اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق احمد عبدالغفور الطار، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، محمد حلمي المنياوي، 191047، ص2395.
([2]) لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ج5، ص174.

ثانياً:

من المفردات القرآنية التي اختارها الأسلوب القرآني للدلالة على الشكوى لفظة (بثي) وذلك شكوى النبي يعقوب عليه السلام يحكيها قوله تعالى: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (يوسف 86).

البث لغةً هو: النشر والتفريق والإظهار وجاء في اللسان أن (البث: الحزن والغم الذي تفضي به إلى صاحبك... وقال البث في الأصل شدة الحزن والمرض الشديد كأنه من شدته يبثه صاحبه).

ذكر الراغب الأصفهاني (ت: 502هـ) ، أن أصل البث التفريق وإثارة الشيء كبث الريح التراب، وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والسر، يقال بثثته فأنبت.

يتبين من ذلك أن اللفظة دلت على عموم الإظهار في أصلها اللغوي ثم قصرت على إظهار الحزن والغم.

وقد وردت هذه اللفظة بدلالتها الأصلية وهي النشر والتفريق والإظهار في تسعة مواضع من القرآن الكريم وجاءت دالة على (إظهار الحزن والهم) وهو من مصاديق معنى الشكوى الاصطلاحي (إظهار التضرر) في موضع واحد وهو شكوى النبي يعقوب المذكورة آنفاً، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن المراد بالبث: (أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه للناس أي ينشره) وقيل هو أشد الحزن[1].

[1] مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات،أ.د/حسن منديل حسن ،السنة الخامسة،العدد الثامن، 2014م،ص171

ذكر القرطبي (ت: 671هـ) أن (حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها، وهو من بثثته فرَّقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً). وإلى مثل ذلك ذهب صاحب تفسير روح المعاني.

البث من الألفاظ المجازية التي استعيرت للأمور المعنوية والنفسية الذي يلفت الانتباه من التأمل في نص الشكوى في قوله تعالى في شكوى النبي يعقوب عليه السلام يقول تعالى: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (يوسف 86). يتضح لنا أن لفظة (بثي) جاءت وقد عطفت عليها لفظة (حزني) ، فكيف تفسر لفظة (بثي) بالحزن وقد أعقبتها لفظة (الحزن؟!).

للطاهر بن عاشور رأي يبيِّن من خلاله الفرق بين اللفظتين إذ يقول: البث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء، والحزن: الأسف على فائت، فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب عليه السلام وما يعترضه من الكرب في غربته وكان أسفاً على فراقه.

الذي يبدو أن ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور بعيد عن الصحة؛ لأن قوله (البث) هو التفكير بالهم هو خلاف ما جاء من معنى في أصل اللغة واستعمالها اللغوي الذي هو الإظهار والتفريق والنشر.

لعل الصواب ما بيَّنه أبو هلال العسكري (ت: 395 هـ) من فرق بين اللفظتين إذ يقول: (إن قولنا الحزن يفيد غلظ الهم وقولنا البث يفيد أنه ينبت ولا ينكتم من قولك أبثثت ما عندي وبثثته إذا أعلمته إياه). وأصل الكلمة كثرة التفريق ومنه قوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (القارعة 4)

قال تعالى: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) (يوسف 86). فعطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق في المعنى.

فقد جيء بلفظ (البث) للدلالة على الشكوى الناطقة، التي يعبر عنها بالكلام وجيء بلفظ (الحزن) للدلالة على الشكوى الصامتة، التي يعبر عنها بعبوس الوجه، أو احتقانه أو البكاء أحياناً، ولعل ابيضاض عين النبي يعقوب عليه السلام وهو مظهر أو علامة على الحزن الشديد الذي يكنّه في داخله على ولده المفقود.

وذلك في قوله تعالى: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) (يوسف 84) فضلاً عن مجيء لفظة (كظيم) مع الحزن، ما يؤكد دلالة الحزن على الشعور الباطن والمستكن؛ لأن الكظم نقيض الشكوى، وما يؤيد ذلك، قول القرطبي عند تفسيره لقوله (فهو كظيم) أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه.

كما نلحظ ملمحاً أسلوبياً آخر يتضح من تقديم (البث) على (الحزن)، ومجيء لفظة الحزن ملاصقة لقوله (إلى الله)؛ لأن الشكوى الظاهرة الناطقة يمكن أن تثبت وتظهر إلى أكثر من جهة أو رتبة، في حين أن (الحزن) وهي الشكوى الصامتة لا تكون ظاهرة إلا لله سبحانه وتعالى فهو علام الغيوب خالق النفس البشرية والعارف بأحوالها.

نخلص مما تقدم إلى دقة الاختيار للألفاظ في الاستعمال القرآني، فضلاً عن بيان حقيقة راسخة للعيان مفادها عدم وجود الترادف التام في المعنى بين الألفاظ[1(1)].

[1] مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات،أ.د/حسن منديل حسن ،السنة الخامسة،العدد الثامن، 2014م،173.

أساليب الشكوى في التعبير القرآني

وردت التراكيب المعبِّرة عن الشكوى في النص القرآني في أساليب وأشكال متعددة وبعد التأمل المستفيض في نصوص الشكوى القرآنية تبيَّن أن جملة الشكوى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: جملة قول الشكوى وما يتعلق بها (فعل الشكوى، قائل الشكوى، الجهة المرسلة إليها الشكوى).

القسم الثاني: جملة مقول الشكوى (نص الشكوى)

القسم الأول: (جملة قول الشكوى وما يتعلق بها) ويمكن حصره في خمسة أساليب وهي:

الأسلوب الأول:

يذكر الفعل المستعمل للشكوى (قال أو مرادفه) بعدها يذكر المشتكي (قائل الشكوى) ثم المشتكى إليه، منه وقد ورد هذا الأسلوب في شكلين:

الشكل الأول: يذكر اسم الشاكي في جملة القول ظاهراً وكذلك اسم المشتكى إليه أو المشتكى منه يذكر ظاهراً أيضاً كما في قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(الصف 5)

فقد تشكى موسى عليه السلام من أذى قومه له فذكر الفعل (قال) والشاكي هو (موسى) والمشتكى منه وهو (قومه) ومن ثم ذكر نص الشكوى.

الشكل الثاني: يذكر فعل قول الشكوى ويضمر قائل الشكوى فلا يذكر ظاهراً وإنما مضمراً متصلاً، ثم يذكر المشتكى إليه اسماً ظاهراً، مثال ذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (آل عمران 156)[1] .

الأسلوب الثاني:

في هذا النوع يتقدم ذكر قائل الشكوى على الفعل وكذلك على المشتكى إليه وذلك نحو قوله تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء83).

فقد تقدم ذكر قائل الشكوى وهو النبي أيوب عليه السلام على الفعل (نادى) وعلى المشتكى إليه (ربه).

الأسلوب الثالث:

يحصل في هذا الأسلوب حذف لأحد عناصر جملة قول الشكوى وهو عنصر المشتكى إليه، ويذكر فعل الشكوى كذلك قائلها ويكون القائل اسماً ظاهراً، وهذا الأسلوب خاص بشكوى حديث النفس أو بشكوى الإفصاح عما في النفس من مشاعر الحزن والتضرر، مثال ذلك قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ

(1)مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن 2014 ص 178 .

مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة 214).

إذ يلحظ من النص أن فعل قول الشكوى مذكور وهو يقول والشاكي ظاهر وهو (الرسول والذين آمنوا معه) من غير ذكر المشتكى إليه.

الأسلوب الرابع:

فيه يحذف عنصران من عناصر جملة الشكوى هما القائل والجهة المرسلة إليها الشكوى، وأكثر ما يكون ذلك في شكوى الإفصاح عما في النفس من تضرر إلا أن هذين العنصرين قد ذكرا في سياق سابق لجملة الشكوى مما يغني عن ذكرهما في جمل الشكوى، من ذلك قوله تعالى حكاية لشكوى النبي نوح عليه السلام: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) (هود45).

فلم يصرِّح بذكر القائل للشكوى فضلاً عن ذلك استغنى عن ذكر الجهة المرسلة إليها الشكوى بمناداة الرب مما أفاد ذلك أن الكلام موجه لله تعالى[1].

الأسلوب الخامس:

في هذا النوع من الأساليب تحذف جملة القول كلها، وتذكر جملة المقول (نص الشكوى)، فقط من ذلك قوله تعالى حكاية في شكوى الكافرين والجاحدين لنعم الله تعالى: (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) (الواقعة 66 . 67).

(1)مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن 2014 ص 180

فقد اكتفى التعبير القرآني بذكر جملة مقول الشكوى وهي: (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) ولم يصرِّح بالقائل أو الجهة المرسل إليها الشكوى.

نظير ذلك قوله تعالى حكاية لشكوى الكفار عند رؤية العذاب: (يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) (الأنبياء 97).

هذه هي الأساليب التي وردت بها جملة قول الشكوى في الخطاب القرآني.

القسم الثاني: (نص الشكوى):

عند استقراء الآيات الدالة على الشكوى في الخطاب القرآني تبيَّن أن أغلب نصوص الشكوى قد افتتحت أو تصدرها النداء، فقد وظِّف أسلوب النداء لغرض الشكوى.

أشهر أدوات النداء وأوسعها استعمالاً هي الأداة (يا) وهذا ما نلحظه متحققاً في الخطاب القرآني لا سيما في الآيات الدالة على الشكوى، فقد وردت ملفوظة كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) (البقرة 61) وكذلك قوله تعالى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) (المائدة 22) وقوله: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) (هود32).

كما ورد استعمالها في النداء مجازاً في الخطاب القرآني، وذلك في مواضع كثيرة منها مناداة: الأسف، والحسرة، وحرف التمني ليت، ومناداة الويلة، وذلك في بابين من أبواب النداء وهما الاستغاثة والندبة[1].

(1) مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن، 2014م، ص 182

هذا ما يتعلق بمفتتح الشكوى، أما فحوى الشكوى فقد جاءت في الخطاب القرآني على أساليب متنوعة، وقد صنفت هذه الأساليب على قسمين قسم خاص بالأسلوب الخبري، والقسم الثاني يتعلق بالأسلوب الإنشائي؛ (لأن كل ما يصدر عن الناس من كلام لا يخرج عن واحد من اثنين هما الخبر والإنشاء)[1] .

أولاً: الأسلوب الخبري:

جاءت أغلب نصوص الشكوى في الخطاب القرآني بأسلوب الخبر؛ لأن الشكوى في أساسها هي رسالة يخبر الشاكي فيها المرسل إليه بأمر أضره أو يتضرر منه، ثم يأتي بعدها المطلب لرفع هذا الضر أو دفعه.

قد يكتفي الشاكي في إظهار التضرر فقط كما هو الحال في شكوى التنفيس وقد جاء هذا الأسلوب على أربعة أشكال كالآتي:

الشكل الأول: الجملة الاسمية نحو قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) (الحجر 52) ، وكذلك شكوى زوجه يحكيها قوله تعالى: (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) (الذاريات 29) .

الشكل الثاني: الجملة الفعلية وجميعها جاءت بصيغة الماضي

فمن نصوص الشكوى التي جاءت على شكل جملة فعلية فعلها ماضٍ مثبت شكوى إخوة يوسف لعزيز مصر يحكيها قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ) (يوسف88) ومن ذلك شكوى قوم نوح وقد جاءت شكاواهم بصيغة الفعل الماضي وقد تصدرها حرف

(1) بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة،ص13

التحقيق (قد) وذلك في قوله تعالى: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) (هود 32) كما جاءت الشكوى بصيغة الفعل الماضي المبنى للمجهول من ذلك شكوى أخوة يوسف لأبيهم في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) (يوسف 63) أما ما جاء من نصوص الشكوى بصيغة الفعل المنفية فمن ذلك شكوى قوم موسى يحكيها قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) (البقرة 61) .

الشكل الثالث: الجملة الشرطية:

قد وردت نصوص الشكوى القرآنية على شكل جملة شرطية وذلك في أكثر من موضع وقد تصدرتها لو الشرطية، وهذه الأداة تفيد ثلاثة أمور أحدها الشرطية والتقيد بالزمن والماضي والامتناع.

يقول بن هشام (ت 761) فإن كل من سمع (لو فعل) فهم عدم وقوع الفعل من غير تردد[1].

أغلب ما جاء من نصوص الشكوى على هذا الشكل هو من نوع شكوى التنفيذ من ذلك شكوى المخلفين عن معركة أحد يحكيها قوله تعالى: (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا) (آل عمران 154) المراد: (إن الرأى ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يقتل أحد منا).

أي أن معنى كلامهم: (سوء الرأي في الخروج وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد).

(1)مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن ، 2014م، ص 182

ثانياً: جملة الشكوى: بأسلوب الإنشاء:

من الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية التي وردت في الشكوى الخطاب القرآني هي: الأسلوب الأول الإنشاء الطلبي: فقد وردت الشكوى في الخطاب القرآني بالأسلوب الطلبي وهو أسلوب الاستفهام، كما جاء في شكوى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه يحكيها قوله تعالى: (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة 214) فهو استبطاء لمجيئه مع شدة البلاء، وما جاء من نصوص الشكوى بأسلوب الاستفهام شكوى الكافر يوم القيامة لربه يحكيها قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) (طه 125)، ومن ذلك أيضاً شكوى الكفار يحكيها قوله تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) (النساء 77) .

الذي يلحظ مما تقدم أن الاستفهام في نصوص الشكوى كان إنكارياً في جميع المواضع وليس حقيقياً.

الأسلوب الثاني: الإنشاء غير الطلبي:

وردت الشكوى في الخطاب القرآني بأسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي وهو أسلوب الندم وذلك في موضع واحد فقط، وهي تشكي موسى عليه السلام من قومهم يحكيها قوله تعالى: (قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي) (الأعراف 150)، فقد أظهر الكراهية والحزن الشديد من فعل قومه أثناء غيابه للقاء ربه، إذ عبدوا الأوثان فكان المعنى (بئست خلافة خلفتمونيها خلافتكم)[1] .

(1) مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن، 2014م، ص 186

نخلص من ذلك إلى القول إن هذا ما جاء من الأساليب القولية للشكوى في الخطاب القرآني فضلاً عن أسلوب النداء، كنداء الحسرة والأسف والويل والتمني التي تكون بمثابة أسلوبي النداء والاستغاثة التي يبدو من التأمل فيها أن جميعها على اختلافها وتنوعها تصب في بوتقة واحدة وهي الإخبار أي إخبار الشاكي المخاطب بأمر تضرر منه سوء أكان الأمر من نفسه أم من الغير.

لبيان الأمر أكثر نذكر المثال الآتي:

إن الشاكي إذا ما أراد إظهار التحسر أو التندم على شيء فإنه يستطيع التعبير عن ذلك بأكثر من أسلوب إذ يمكن أن يعبِّر عنه بالأسلوب الخبري كما في قوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) (المؤمنون 106) أو يعبِّر عنه بأسلوب الشرط كما في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك 10) ويمكن أن يعبر عنه بأسلوب نداء الحسرة أو التمني كما في قوله تعالى: (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) (الأنبياء 14) وكذلك بمناداة الحسرة كما في قوله تعالى: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) (الزمر 56) كما يمكن أن يعبر عنه بأسلوب النفي كما في قوله تعالى على لسان الكافر يوم قيامة: (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) (الحاقة 28–29).

فكان بالإمكان أن نعد كل ما تقدم من الأساليب في إظهار الحسرة والندم هو من قبيل المشترك المعنوي على أن هذا التعدد له فوائده ومقاصده الأسلوبية ، كما يذكر الدكتور حسان إذ يقول: (إذا كان الأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المعنى فإن لاختيار

هذه الطريقة دون غيرها من الطرق الموصلة إلى هذا المعنى مقصداً معنياً يقصد إليه صاحب الأسلوب بجعل العنصر المختار مؤثراً أسلوبياً يشير إلى قصد ما)[1].

([1]) مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن ، 2014م، ص 187

المبحث الثاني

أسباب ودوافع الشكوى في العصر الأندلسي

كانت أيام المآسي قد طغت على أيام السعادة عند أهل الأندلس بل زادت عليها فإنهم طيلة ثمانية قرون متلاحقة ما عرفوا للسعادة طعماً «ومتى علمنا أن الوقائع التي نشبت بينهم وبين الفرنجة بلغت ثلاثة آلاف وسبعمائة واقعة إلى جانب ما قام بين فئاتهم المختلفة من فتن داخلية» أدركنا في أي تيار من القلق والحذر كانوا يعيشون، الأمر الذي جعل ذلك كله ينعكس على الشخصية الأندلسية؛ فالأندلس منذ بداية تاريخها إلى نهاية الفترة الإسلامية فيها وهي ومن عليها يتعرضان للرزايا وكثرة المصائب، ولهذا فإن إيمان «ابن عبد ربه»[1] قد جعله ذلك الكاتب الذي لا تتبع كتابته من اندفاع زائف وإنما كانت استجابة لوضع معيش ومتوقع[2].

إن أهل الأندلس عامتهم وخاصتهم قد عانوا من العلل الكثير مما أدى إلى وجود شكوى في شعرهم.. كما أن المصائب في الأندلس قد أذلت الكثير من أهلها فكم من ملك أو أمير أو مسود أذله الدهر [3]، ناهيك عن العامة فالأندلس محل السيوف والتشريد والتنكيل وما قول الشاعر الآتي من فراغ:

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

([1])ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بين حُدير القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (246 . 328).

([2])بحوث في الأدب الأندلسي، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين د. عبد الله بن علي بن ثقفان، ، مكتبة التوبة،ط 1، 1417هـ . 1996، ص5.

([3]) المرجع السابق ، ص 5.

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان[1]

وأين هذا القول الذي ينم عن ضعف متناهٍ، وعن كثرة مصائب من قول الشاعر:

لسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا [2]

إن الضعف قد جاء ترجماناً لما عانت منه الأندلس وأهلها:

إن للدهر صولة وانقلاباً ولهذا نعيمه لن يدوما [3]

الأسباب والدوافع التي أدت إلى الشكوى في العصر الأندلسي

أولاً: الشكوى من العلة:

العلة تحد بأمرين هما المرض والحزن، فالمرض قد يكون بدنياً وقد يكون نفسياً، ومن ثم فإن الحزن جزء من المرض أو هو المرض ذاته، وذلك إذا تحول إلى ألم نفسي فقد يكون علاجه أصعب من علاج المرض البدني لمعلومية هذا وخفاء ذلك[4].

أولاً: العلل الذاتية:

هي تلك العلل التي تلتصق بالإنسان أو هو يلتصق بها، وهي متعددة ومتلونة بتعدد الأهواء والمشارب، والإنسان الأندلسي قد عانى من علل ذاتية سببت له توتراً داخلياً أدى

([1])بيتان من قصيدة مشهورة للشاعر صالح بن شريف الرندي مطلعها: (لكل شيء إذا ما تم نقصان.. فلا يغر بطيب العيش إنسان) نفح الطيب من قصن الأندلس الرطيب تحقيق د. أحسان عباس دار صادر بيروت ، 1968 ج 4، ص 87.

([2])بيت من مقطوعة منسوبة لطارق بن زياد، المرجع السابق ج 1 ص 265.

([3]) من مقطوعة للشاعر الشيخ أبي عثمان سعد بن أبي جعفر أحمد بن ليون التجيبي، المرجع السابق نفسه، ج 5، ص 558 . 559.

([4]) بحوث في الأدب الأندلسي، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، د. عبدالله بن علي بن ثقفان مكتبة التوبة، ط 1، 1417هـ . 1996، ص5.

إلى عدم الاستقرار النفسي عند هذا المفكر أو ذاك، قال أحدهم شاكياً وضعه مبدياً؛ قلقه بل ضعفه أمام ما تعرَّض له من علل[1]

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلا استذلت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت

العلل الذاتية تتعدَّد وتتلوَّن، فالمفكر الأندلسي قد عانى من مرارة الهجران ووجع الشكوى، كما عانى من التعاسة ومن الخوف ومن الغربة والحنين، كما أنَّ من الفراق ومن الفقد ومن الظلم، لا ننسى الحسد والوشاية. قال (ابن حزم): (ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستغلالهم كثيراً ما يأتي به، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته....). قال والد ابن الأبار [2] مدللاً على ما كان الناس عليه:

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال في كل خيرٍ وشر

فكل يقول بخير أنا وعند الحقيقة ضد الخبر [3]

كان حال أهل الأندلس كذلك، يظهرون السعادة والواقع غير ذلك فهم كما قال الشاعر المشرقي:

فريقان: منهم جازع بطن نحله وآخر منهم قاطع نجد كبكب [4]

([1]) من مقطوعة للمصحفي (الحاجي جعفر بن عثمان المصحفي) انظر المقطوعة وصاحبها في: مطمح الأنفس، ومسرح التأنس ، بن خاقان القسطنطينية مطبعة الجوائب ، 1302هـ، ص 153.

([2])هو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي من أهل العلم والدين، والد صاحب كتاب الحلة السيراء، انظر ترجمة (ابن الأبار) لوالده في مقدمة المحقق التي كتبت في الجزء الأول ص 14 . 15.

([3])الحلة السيراء بن الأبار القضاعي ، تحقيق د. حسين مؤنس ، مطبعة الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة 1963، ص 15

([4])الشاعر امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر، شاعر مشهور (500– 560م).

أو كما قال الشاعر الأندلسي:

تقسمهنَّ السيف والحيف والبلى وشطت بنا عنها عصور وأزمان

كما اقتسمت أخذانهن يد النوى فهم للردى والبر والبحر إخوان

وإذا أشرق الحادي غربت بنا نوى يومها يومان والحين أحيان [1]

إذا كانت هذه العلل قد تعددت فإنها كانت تمثل أرضاً خصبة لقول الشعر خاصة فكان شأن مفكري الأندلس مع عللهم الذاتية كشأن الشاعر المشرقي (الكميت) [2] مع الهاشميات، تلك التي أبدع فيها مما حدا (بالفرزدق) إلى القول عنه: (لقد وجد آجراً وجعاً فبنى....) والفرزدق نفسه هو القائل: (وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر؟)[3]

إذا كان الشعر تعبيراً عن العواطف أو هو فيض تلقائي لمشاعر قوية [4]ومثله النثر، فإن المفكر الأندلسي قد سخر فكره ليكون مرآة عاكسة [5]لما كان في دواخله أو مكنوناته وهي مكنونات قد أصابها القلق فكان ذلك العطاء صورة صادقة لما في النفس أو لما كان ذلك المفكر يشعر به وهذا العطاء قد جعلنا وكأننا نعايش أولئك القوم بما هم فيه فكان شأننا في ذلك كشأن (محمد بن يسير)[6]

([1])الشاعر أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي (347 ـ 421هـ) الذخيرة: في محاسن أهل الجزيرة بن بسام الشنتريني ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة بيروت، 1978–1979، ص ج 1، م 1 ص 59.

([2])أبو المستهل الكميت بن زيد الأسري (60 ـ 126هـ) انظر تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 697 .

([3])الفرزدق: هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، (20 – 114هـ).

([4])تاريخ الأدب العربي، كارل بروكل مان ، تحقيق شوقي طيف ، دار المعارف ، ج 1 ، ص 159.

([5])الدكتور عبد الله بن علي بن ثقفان، بحوث في الأدب الأندلسي، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، ط 1، 1417هـ . 1996م، ص 37.

([6])محمد بن يسير الرياشي يلقب بأبي جعفر، انظر تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ج 2 ص 223.

الذي قال مع اختلاف في المناسبة[1]

حتى كأني قد شاهدت عصرهم وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

إن الحياة الأندلسية لم تضف لأحد، وليس ذلك بغريب، فهذا شأن الدنيا خاصة مع الإنسان المفكر[2]:

وصاحب العقل في الدنيا أخو كدر وإنما الصفو فيها للمجانين

وقال الشاعر شاكياً حاله [3]:

يا عمرو أين عمير من كدي يمن لقد هوت بك يا عمرو الرياح وبي

طول ارتحالي وأحظ غير طائلة وغيبة ناهزت عشراً من الحقب

وقال آخر[4]:

بنجد أناخوا العيس بعد تهامة ويا بُعدَ ما بيني وبينكِ يا نجد

وإذا كان الأندلسي قد تضجر من مكانه أو أرضه، فإنه قد تضجر من بعض الظروف التي أحاطت به كالفقر مثلاً، يقول أحدهم[5].

ألا فأذنوا لي بالسراح فإنه نهاية مطلوبي وفيه عذابُ

فإني قد خلفت في أفق موطني فراخاً هواهم ليس عنه متاب

([1])الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، الدكتور عبد الله بن علي بن ثقفان، بحوث في الأدب الأندلسي ـ ط 1 1417 هـ ـ 1996م ص 37.

([2])انظر القصيدة كاملة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق دكتور إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م،4–375 ج 1، ومنها البيت السابق، وقد سميت بـ (كنز الأديب) ص 542.

([3])أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي، ت 572 هـ.

([4]) علي بن عطية الله بن مطرف بن سلمة اللخمي يُعرف بابن الزقاق البلنسي 489 ـ 530هـ انظر ما كتب عن الشاعر وحياته في مقدمة المحقق وانظر البيت ص 142 وهو من مقطوعة مطلعها: رمى أدمعي نص الركائب والوخد.. فأبدت هوى من لم يكن سقماً يبدو

([5])المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد المغربي القاضي مختار بن عبد الرحمن الرعيني، تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر، ط2 ، (د.ت) – ج 2، ص 207.

إن الأندلسي في بعده عن وطنه قد بكى في عاطفة آلام الفراق [1]، وقد ظهر لنا ذلك فيما خلفه لنا من فكر بين شعرٍ ونثر أظهر لنا فيه ذكرياته عن بلده الذي حوى المال والأهل والولد إن كان قد بقي منه شيء مع توالي الفتن وتكالب الأعداء.

([1])الشعر العربي في إسبانيا وصقلية، فون شاك ، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر ، 1991، ص 104

المبحث الأول

قيام دولة المرابطين وزوالها

ظهرت حركة المرابطين لأول مرة في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري في شمال إفريقيا، وكانت في بدايتها حركة دينية يرجع الفضل في وجودها إلى يحيى بن إبراهيم الكدالي أحد زعماء قبائل صنهاجة التي تسكن صحراء شنجيط «موريتانيا حالياً» وكان يحيى رجلاً صحيح الإسلام وتلميذاً غير مباشر لعالم قبائل زنَاتة يُدعى أبا عمران الفاسي، وقد ساء يحيى أن يرى الجهل بالدين فاشياً بين قبائل صنهاجة، وتلافياً لذلك استعان بأبي عمران على إصلاح هذا الأمر فأمده سنة (430هـ) بفقيه من أهل الدين والأذكياء، هو عبد الله بن ياسين الجزولي ليقوم بين القبائل بالدعوة والإرشاد[1].

دخل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين، فوجد القوم هناك على جهلٍ مطبَّق لا يفرِّقون بين حلالٍ وحرام، ولا يعرفون من الإسلامِ غير الشهادتين، ويتزوجون أكثر من أربع نسوة، فجعل يقرئهم القرآن ويبيِّن لهم أصول الدين، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فثقلت وطأته عليهم، ونفرت قلوبهم منه[2].

وحدث أن مات راعيه يحيى بن إبراهيم، فزاد ذلك في إعراضهم عنه، فخرج مع من ثبت منهم على دعوته إلى رباط ناءٍ في الصحراء حيث أقاموا يعبدون الله، ويطبقون تعاليم

([1])الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 103، ط 2 1967، ، تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2، 1986.

([2])الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 2 ص 104،

دينه، وما لبثوا هنالك إلا قليلاً حتى تسامع بالفقيه الناس، فأقبلوا عليه، وبلغ عدد أتباعه نحو ألف رجل، فسماهم أو سماهم الناس «المرابطين»[1].

كان من عاداتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فسمُّوا أيضاً بالملثمين[2].

قضى عبد الله بن ياسين إحدى وعشرون سنة في تربية المرابطين وإعدادهم دينياً وروحياً للدعوة، وحربياً إذا اقتضى الأمر. ولما كثرت جموع أتباعه وقويت شوكتهم ندبهم للجهاد وخرج على رأسهم من أطاعهم وأخذ بمبادئهم سالموه ومن خالفهم قاتلوه، وحدث أن استشهد هذا الزعيم المرابطي سنة 451هـ فولى الأمر بعده أبو بكر بن عمر اللثموني الذي لم يلبث أن سلم سلطاته سنة « 453هـ» إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي يُعد المؤسس الفعلي لدولة المرابطين، إذ كان رجلاً ذا حزمٍ وعزم، وقد صبت همته إلى توحيد المغرب تحت إمرته ومن ثم خرج بجيشه يفتتح مدائن المغرب ولم تأتِ سنة «454هـ» حتى دان له كل المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ونقل عاصمة ملكه من فاس إلى مراكش[3].

([1])اختلف المؤرخون حول أصل هذه التسمية فمنهم من ذهب إلى أنهم سموا بذلك لملازمتهم الثغور لدفع الأعداء أخذاً من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» صدق الله العظيم آل عمران، الآية « 200»، ومنهم من ذهب إلى أنهم سموا بذلك لملازمتهم رابطة الفقيه عبد الله الجزولي، الأنيس المطرب، ص 76، ابن أبي زرع أبو الحسن بن عبد الله الفاسي، نشره كارل يومن تورنبرغ، طبعة أوبسالة 1843، انظر تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 69/1، يوسف أشباخ، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 2، 1411هـ . 1996م.

([2])اختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية على عدة آراء أيضاً أقربها للمنطق أنهم كانوا يتلثمون دفعاً لهجير الصحراء صيفاً وزمهريرها شتاءً، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: 63/1، وانظر تاريخ المغرب والأندلس، ص 289.

([3])انظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس«عصر المرابطين والموحدين» ص 26 – 27، دكتور حسن علي حسن، مكتبة الخانجي بمصر 1980م

دخول المرابطين الأندلس:

كان جواز المرابطين إلى شبه جزيرة إيبرية «الأندلس» لأول مرة سنة « 479هـ» وذلك بدعوة من ملوك الطوائف الذين اتفقوا على طلب النجدة والعون العسكري من الملثمين لدفع خطر النصارى وصد تقدمهم السريع، ولا سيما بعد سقوط طليطلة في أيديهم سنة «478هـ» فكان للنصر العظيم الذي أحرزه المسلمون بمساندة المرابطين في موقعة الزلاقة[1] أثره العميق في نفوس الأندلسيين الذين رأوا فيهم المنقذ والمخلص من جور حكامهم وظلمهم من ناحية والحصن الواقي من الخطر المسيحي المحدق بهم من ناحية أخرى .

بعد موقعة الزلاقة عاد يوسف إلى المغرب بعد زوال الخطر عن الأندلس تاركاً وراءه قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الطوائف لحماية الثغور ودفاع العدو، ولكن سرعان ما نسي ملوك الطوائف خطر العدو واستأنفوا حياتهم الأولى، حياة اللهو والمجون والتناحر فيما بينهم معرضين بلادهم بذلك للفقر والضياع من جديد.

رأى أهل الأندلس ما آل إليه حال ملوكهم من الضعف والتردي، ثم رأوا معاودة العدو إياهم والانقضاض على بلاد الإسلام فتعالى الصريخ إلى يوسف هذه المرة من فقهاء الأندلس وأعيانها وعامتها مستغيثين به، فأسرع إلى نجدتهم سنة 483هـ1090م. وأوقف العدو عند حده[2].

([1])الشعر في ظل بني عباد، د. محمد مجيد السعيد النجف مطبعة النعمان 1972م، ص 27.

([2])الأدب العربي في الأندلس، د. عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 2، 1967 ص 98. 99.

في هذه المرة شرع يوسف في خلع ملوك الطوائف الواحد إثر الآخر بعدما ثبت له تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو ولم تأتِ سنة 495هـ . 1101م حتى تمت للمرابطين السيطرة على الأندلس وضموها لدولتهم وبذلك أصبح القطران المغرب والأندلس دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش[1].

السياسة الداخلية في الأندلس في ظل حكم المرابطين:

عادت إلى الأندلس وحدتها السياسية بعد انهيار دول الطوائف وانهزامها أمام الزحف المرابطي وعاد إليها استقرارها وهدوءها، ومردّ ذلك إلى قوة حاكمها الأول يوسف بن تاشفين وحنكته، فقد كان يوسف شخصية فذة تتمتع بمواهب خاصة أجمعت المصادر على وصفها بالبطولة والشجاعة والعدل والتقشف في أمور الدنيا، إلى جانب الاهتمام بالمصالح العامة وتفقد الولاة والحكام والقضاة ومحاسبتهم والمحافظة على شؤون الشريعة والأخذ بآراء الفقهاء ورجال الدين واحترامها، وفي أيامه نعمت البلاد بالرخاء والأمن، فلم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكسب ولا مونة ولا خراج إلا ما أمره الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[2].

أما ابنه علي بن يوسف (500 . 537هـ) الذي تولى الأمر بعده، فعلى الرغم من اتصافه بالعدل والتدين والفضل لم يكن من الحنكة السياسية والقوة كأبيه، فقد انخضع وراء الفقهاء والتزم بأقوالهم وآرائهم ولم يأخذ نفسه بمراقبة الولاة والقضاة ومتابعتهم وتفقد

([1])قيام دولة المرابطين، دكتور حسن أحمد محمود، مكتبة النهضة المصرية 1957م، ص 263، 295، 322.

([2])الأنيس المطرب، في أخبار أهل المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، ابن ابي زرع أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، ط1، ج 2 – ص 37.

تصرفاتهم وانسياقه وراء الفقهاء دفعه إلى حرق كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي[1].

كما اتضح مردود إهماله للولاة والتغاضي عن محاسبتهم وملاحقتهم في تلك الثورة الشعبية التي قامت بها جماهير قرطبة عام 514هـ ضد ولاة المرابطين وجندهم الذين استهتروا بالقيم والأخلاق وعبثوا بمقدرات الناس بما كانوا يرهقونهم به من صنوف الاضطهاد والظلم، وقد كانت الثورة من القوة والعنف أن دفعت علياً ابن تاشفين إلى عبور البحر بنفسه على رأس جيش ضخم لمحاصرة المدينة التي ظلت صامدة عنيدة حتى اضطر ابن تاشفين أخيراً إلى الرضوخ لشروط أهلها، وهذه الثورة تتميَّز بمدلول عميق يشير إلى مدى توتر العلاقة بين الأندلسيين والمرابطين وإلى مدى الألم النفسي الذي يعانيه الفرد الأندلسي بفقدان حريته واستقلاله[2].

السياسة الخارجية في الأندلس في ظل حكم المرابطين:

قامت حركة المرابطين في الأساس على مبدأ نشر الدين الإسلامي والجهاد في سبيل الله ودفاع الأعداء وصون البلاد الإسلامية من الغزو المسيحي الذي كان يتهددها من الشمال، ولما استولى المرابطون على الأندلس دخلوا في حروب ومعارك مستمرة كادت تتكرر كل عام آخذة صبغة الصراع الديني، فقد أصبحت الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها خاضعة من الناحية السياسية للزعامة العربية الإسلامية وظلت هكذا في بعض جهاتها حتى أثناء حكم ملوك الطوائف وحينما انتقل الحكم من العرب إلى المرابطين الأفارقة، كان هؤلاء الرؤساء الجُدد من غير الإسبانيين أيضاً وهذا الأمر له أهميته

([1])تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط 3، بيروت، 1961م 2 ـ 188.

([2])الكامل في التاريخ، ابن الأثير تح: عبد الوهاب النجار، القاهرة، المطبعة المنيرية 1353هـ، 8 . 90، وانظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م ص 15.

بالنسبة لأهل البلاد الأصليين الذين كانوا يتطلعون دوماً إلى إخراج المسلمين من بلادهم، إعادة أسبانيا إلى الحكم المسيحي وظل الصراع قائماً متجدداً، ليس فقط بين المسلمين ونصارى الشمال وإنما شمل أيضاً أولئك المسيحيين القاطنين في البلاد الإسلامية من الأندلس فقد حدث أن قام الفونسو الأول سنة (519هـ) بحملة على بلاد المسلمين فآزره المستعربون من أبناء البلاد الإسلامية وانضموا إليه وساندوه بكل ما يستطيعون، وسرعان ما وجدوا أنفسهم أمام غضب المسلمين عقب انسحاب الفونسو فاضطر بعضهم إلى ترك البلاد وحلت نقمة سلطان المرابطين بإخوانهم الباقين فقد غربت منهم . بأمره . ألوف عدة إلى إفريقيا[1].

أما الأحداث الحربية التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين أيام المرابطين فهي سقوط بلنسية (487 هـ) وسقوط سرقسطة (512 هـ) وموقعة أقليتس (502هـ) وموقعة أفراغة (502 هـ)[2].

ثانياً: نهاية دولة المرابطين وعوامل سقوطها:

تضافرت عدة أسباب أدت إلى نهاية حكم المرابطين في الأندلس، من أهمها ضعف القيادة العليا للبلاد، وذلك مند تولي علي بن يوسف الحكم، مما دعا كثيراً من الأمراء إلى الاستبداد، يعبِّر عن ذلك المراكشي بقوله: «واختل حال أمير المسلمين . رحمه الله . بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد.. وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير

([1])تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، ترجمه وعلق عليه محمد عبدالله، مكتبة الخانقي ، القاهرة، ط2، 1417هـ– 1996م ج1، ص157.

([2])البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ابن عذاري المراكشي، تصحيح وتعليق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.ج 4، ص 69 .

من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه» [1] ومما زاد مركز القيادة ضعفاً، ذلك الخلاف الخطير الذي حدث بين إبراهيم بن تاشفين وعمه إسحق بن علي، على السلطة في البلاد، والموحدون يزحفون نحو عاصمتهم فأضعف ذلك مركز المرابطين وعجل انتصار الموحدين، بجانب ضعف القيادة تخاذل الجند وتخليهم عن روح التقشف والجهاد التي تربط في مهادها، وذلك لتأثرهم بحياة الترف الأندلسية، كما أن الحروب المستمرة في جبهة الأندلس استنفدت جزءاً كبيراً من طاقة المرابطين الحربية، ما أسهم في هزائمهم المتكررة أمام الموحدين يضاف إلى ذلك كثرة الإنفاق على المجهود الحربي الذي استنزف كثيراً من المال، ما أدى إلى التدهور الاقتصادي الذي عانته البلاد في أواخر أيامها[2].

من العوامل المهمة التي عجلت بنهاية دولة المرابطين تلك الثورات الداخلية [3] التي قام بها أهل الأندلس ضد حكام المرابطين، ففي أعقاب وفاة علي بن يوسف سنة (537هـ) ظهرت بوادر ضعف سلطان المرابطين بشكلٍ واضح مما شجع الحركات الوطنية في الأندلس عن التنفيس عن كبتها ودفعها إلى إعلان تمردها وإظهار مشاعرها والتعبير عن تطلعاتها، ومن هنا يمكن اعتبار هذه الثورات المحلية في أنحاء مختلفة من البلاد تعبيراً مادياً عن الروح الوطنية الأندلسية التي افتقدها الأندلسيون منذ سقوط دول الطوائف، وقد كانت هذه الحركات تأخذ طابعاً دينياً كثورة ابن قيس في غرب الأندلس، التي قام بها المريدون وهم جماعة متزهدة تلقت تعاليمها عن الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العريف (481– 536هـ) وغلب على هذه الجماعة في بادئ

([1])المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي عبد الواحد بن علي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 1963 ، ص 177.

([2])الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس،عصر المرابطين والموحدين ، حسن علي حسن مكتبة الخانجي ، مصر ، 198، ص 43

([3])المرجع السابق ، ص 465.

الأمر الزهد والورع والتمسك بالطرق الصوفية غير أنها تحولت على يد ابن قيس إلى جماعة تسعى إلى الحكم والسلطة ففقدت لذلك روحانيتها،أو تأخذ الحركة صبغة سياسية شعبية كثورة قرطبة بقيادة أبي جعفر حمد بن محمد بن حمدين قاضي المدينة سنة (539هـ) غير أن هذه الحركات، على الرغم من اتسامها بالثورة والشعبية، كانت أشبه بالفقاعات سرعان ما تخبو؛ لأن معظمها اتسم بطابع العفوية والآنية والافتقار إلى قيادة حكيمة تجمع شملها وتوحد جهودها[1].

فقد بلغ عدد تلك الثورات المحلية أكثر من عشر وكان أعظمها وأقواها غير ثورتي ابن قيس وابن حمدين ثورة ابن أضحى وأبي الحسن علي بن عمر بن أضحى الهمداني (492– 539هـ) في غرناطة، وثورة الأمير أبي عبد الله بن مردنيش (محمد بن سعد) في شرق الأندلس التي دامت قوية مؤثرة حتى سنة (567هـ)[2] وبالرجوع إلى كتاب (الحلة والسيراء) و(أعمال الأعلام) يمكن تصور الوضع السياسي عامة آنذاك وما كان عليه من اضطراب وتمزق وفوضى [3]، ويكفي أن نعرف تقلب الأحوال على قرطبة في غضون ثلاثة أعوام (539 ـ 542هـ) وتوالي الحكومات والدول عليها لشهور مدى تردي الأوضاع آنذاك، فقد ملكها المرابطون مرتين وابن حمدين مرتين وسيف الدولة بن هود مرة ومحمد بن عمر مرتين والفونسو مرة، ثم ملكها الموحدون آخر الأمر.

([1])تاريخ إسبانيا الإسلامية (وهو القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام)، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، طبع دار المكشوف، بيروت، 1956م ، ص 252

([2])الحلة السيراء ابن الإبار القضاعي، تحقيق دكتور حسين مؤنس، مطبعة الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة: 1963م، ج2، ص 211.

([3])المصدر السابق، ص 202.

ومهما يكن من أمر فإن كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نهاية حكم المرابطين في الأندلس وهزيمتهم على يد الموحدين بقيادة محمد بن تومرت سنة (542هـ) بعد أن دام حكمهم فيها قرابة الستين عاماً [1].

([1])تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، ترجمه وعلق عليه محمد عبدالله، مكتبة الخانقي ، القاهرة، ط2، 1417هـ– 1996م ج1، ، ص 220.

المبحث الثاني

نبذة عن حياة الأندلسيين، الطبقات الدنيا والعليا، الحياة الاجتماعية

أولاً: الحياة الاجتماعية

يمثل المجتمع الأندلسي ظاهرة فريدة في تعدديته فهو متعدد الأجناس، مختلف اللغات، متنوع الأديان، متباين الانتماءات القومية والحضارية، ففي عروق الأندلسيين جرت دماء تعود في أصولها إلى أجناس عديدة من شبه الجزيرة العربية على مدى العصور، وهي أجناس متباعدة من القارات الثلاث، استعمرها الفينقيون واليونان، ونزلها الرومان بلغتهم ونصرانيتهم واكتسحها الفندالي والقوط الغربيون والعرب والبربر، وبيع في أسواقها رقيق استجلب من فرنسا وإيطاليا وألمانيا[1].

دخلت الأندلس عند الفتح المرابطي لها مرحلة جديدة في تاريخها الإسلامي، وهذه المرحلة تختلف تماماً عما عهدته في عصورها السابقة، فقد تحولت إلى ولاية ضمن دولة عريضة واسعة يحكمها قوم من شمال إفريقيا، فيهم عتق الصحراء، وخشونة مناخها ويبوسة رملها، فليس من السهل عليها أو على شعبها أنيتقبل الوضع الجديد ويتكيَّف له، فإنهم سرعان ما انكمشوا عنه وقلت حماستهم لحكومتهم، ويبدو أن عوامل ذلك الفتور والتبرم تعود إلى أمور كثيرة، بعضها سياسي وبعضها الآخر فكري وثقافي وبعضها الآخر اجتماعي، هو الذي يهمنا في هذا الفصل، وهذه الأسباب متداخلة فيما بينها أدت كلها مجتمعة إلى كره المرابطين والوقوف منهم موقفاً صدامياً بعض الأوقات[2].

([1])مقدمة محقق ديوان ابن عبدون اليابري الأندلسي، إعداد وتحقيق سليم التنير، ط 1، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا 1408هـ 1988م، ص 14.

([2])الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد نجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، لبنان ، ط 2، 1985م، ص 43.

فالذي تؤكده المصادر التاريخية أن يوسف تاشفين كان مثال الرجل المتقشف المتبتل الحريص على مصلحة المسلمين المدافع عن حرمتهم وأراضيهم، وكان يمقت الإسراف والبذخ والأبهة وقد عاب على المعتمد بن عباد تبذيره أموال الرعية على نفقاته الخاصة ونزواته الذاتية قائلاً: «الذي يلوح لي من هذا الرجل. يقصد المعتمد . أنه مضيع لما في يده من الملك؛ لأن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال، لا بد أن يكون لها أرباب، لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من أفحش الاستهتار»[1].

في زمنه كثرت الأموال وشعرت البلاد بشيء من الاطمئنان والرخاء وكان ابنه على كذلك، حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس بعيداً عن الظلم وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين[2].

وبالرغم من ذلك فقد ازداد نفوذ بعض الطبقات المستغلة التي أثرت واغتنت على حساب الجماهير الفقيرة مثل طبقة الفقهاء والولاة والنساء وسنتناولهم على النحو التالي:

أ. تسلط الفقهاء:

عند قيام دولة المرابطين بالأندلس، قوي نفوذ الفقهاء، واشتد ساعدهم، وصار لهم من القوة ما لم يكن لهم من قبل، وكان ذلك عائداً إلى طبيعة الدولة المرابطية، فقد كانت في أساسها حركة دينية إصلاحية فامتازت بتقوى الحكام وزهدهم، وبالتطبيق الحازم للشريعة الإسلامية، والاستعانة بالفقهاء في كل أمور الدولة، وقد بلغ من سلطة الفقهاء أنهم

([1])نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،ج4– ص 375

([2])المعجب، في تلخيص أخبار المغرب المراكشي ، عبدالواحد ابن علي ، ط1، ص 235.

صاروا قادرين على العمال متسلطين على العامة والخاصة بسبب ما خوِّلوا من صلاحيات[1].

جاء في رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى الفقيه القاضي ابن حمدين: "وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حقٍ تمضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه ونحن أولاً وكلهم آخر مذ صرت قاضياً، سامعون منك، غير معترضين في حقٍ عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل وصح عنك ظلمه لها ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب فاشكه منها وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغرم في ما استهلك فأغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه، والأمر في استكفاء يكفيك ويغنى في بعض الأمور عنك، إليك، ولا نشير بشيء عليك، وتصرفك أحياناً في إصلاح صنعتك وترفيع معاشك غير مضيق عليك فيه فاعمله" [2]. وهذا النص . كما هو ظاهر . تقويض شبه مطلق بالحكم، وإطلاق يد في تحصيل المعاش العائد للمفوض.. وهذا ما خلق طمعاً وجشعاً عند كثير من الفقهاء فانصرفوا إلى جمع الثروات الضخمة لاهين بذلك عن مصالح الناس، مما أثار النقمة وقوى حركة النقد التي وجهت إلى الفقهاء خاصة المرابطين عامة غمزاً وتلميحاً في بعض الأحيان وتصريحاً وهجاءً مراً في أحيان أخرى، وقد اتهم الفقهاء بالتستر في ثياب الدين وبالكذب والاستغلال[3].

([1]) انظر مقدمة محقق ديوان ابن عبدون اليابري الأندلسي، ص 21 – 22.

([2])الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة 2 ، بيروت ، 1978–1979. ج1 ،ص 261.

([3])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، د. خالد بابكر هاشم الدرديري، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، في كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم درمان الإسلامية ، ص 11

ب . استبداد الولاة:

وقد منيت الأندلس إضافة للفقهاء وتسلطهم، بمجموعة من الولاة الذين تولوا أمورها من قبل الدولة اللمتونية وقد استغل هؤلاء بعدهم عن مركز الحكم «مراكش» فأسرفوا في الظلم والاستبداد وإغراق الشعب الأندلسي بشتى وسائل التسلط والاستنزاف من أجل إشباع رغباتهمفي إظهار الأبهة والمدنية على مجالسهم بتزيينها وإعمارها بكل ما يضفي عليها سمة رقيقة من النعومة والترف الحضاري[1].

مما خلق شعوراً بالحقد والكراهية لدى الأندلسيين تجاههم وزاد من تبرمهم واستيائهم، فكانت تلك الانتفاضات تعبيراً مادياً ونفسياً ملموساً عن الكبت والغيظ المخزونَين في أعماق الجماهير، وكانت شكوى ابن عبدون الآسية في رسالة الحسبة تعبيراً آخر وصرخة أخرى للتردي الذي شهدته الأندلس إبان ذلك العصر نسمعه يقول بأسف: «إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير المرتبط بالناموس أصبح يلتمس فلا يوجد»[2].

ج . نفوذ النساء:

منيَّ المجتمع الأندلسي بطبقة أخرى لا تقل في تسلطها عن الطبقتين السابقتين وهي طبقة النساء فلما كانت دولة المرابطين عرف المجتمع نساءً لعبن أدواراً خطيرة في مجال الحكم والسياسة وبرزن في الحياة العامة متمتعات بحرية ومساواة لم تكن مألوفة بحجمها ونوعها لدى الأندلسيين، وهي حرية ومساواة احتكرتها المرأة المرابطية دون الأندلسية، وذلك بحكم التقاليد السائدة في مجتمعات الملثمين، ولكي يتأتى للمطلع إدراك الدور

([1])تاريخ الأدب الأندلسي «عصر الطوائف والمرابطين، دكتور إحسان عباس، طبع دار الشروق، عمان، الأردن 1997م. ص26.

([2])ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب، ابن عبدون وآخرون، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955م، ص 5.

العميق والفعال الذي لعبته المرأة في حياة الدولة المرابطية يجدر أن ترسم صورة اجتماعية لتلك القادمة من الصحراء.

كان للمرأة في القبيلة، مكانة رفيعة، بل كانت تعتبر نِداً للرجل لذا كانت تتمتع بالمساواة التامة، تشارك في مجلس القبيلة وتقتني الثروات وتتدخل في كل الشؤون بما لها من نفوذ ومكانة كبيرين جعلا الرجال ينتمون إلى أمهاتهم في بعض الأحيان، وكانت برِزة الوجه تمشي سافرة في الوقت الذي كان رجال القبيلة يتلثمون وهم أطفال وينشأون على ذلك[1].

ذكر ابن بطوطة شيئاً من عادات المرابطين ومنهم لمتونه ومسوفة فقال: «ولنسائهم الجمال الفائق، وهن أعظم شأناً من الرجال»[2].

د . أحوال أهل الذمة:

جدير بنا ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية في الأندلس إبان حكم المرابطين أن نبيِّن ما كان عليه أهل الذمة، النصارى واليهود . في ذلك العهد بالنسبة لليهود فقد وجدوا عناءً شديداً في ظل الحكم المرابطي، لا سيما في عهد يوسف بن تاشفين الذي كان شديد العداء لليهود والتعصب ضدهم، ما دفع بعضهم مرغماً إلى اعتناق الإسلام أو اتقاء الاضطهاد ببذل مبالغ طائلة من المال ثمناً لحريتهم وسلامتهم [3] كالذي حدث فعلاً

([1])مقدمة محقق ديوان ابن عبدون اليابري الأندلسي، ص 24.

([2])رحلة ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، دار صادر ودار بيروت،لبنان، 1960م، ص 667 – 678.

([3])تاريخ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، ترجمه وعلق عليه محمد عبدالله، مكتبة الخانقي ، القاهرة، ط2، 1417هـ– 1996م ج2، ص239.

ليهود اليسانة. مدينة اليهود في الأندلس الذين يعتبرون من أغنى وأيسر يهود البلاد الإسلامية[1].

قد اضطر بعضهم الآخر إزاء هذا القهر والتعسف، إلى الهجرة وترك البلاد، أما بالنسبة للنصارى فقد كانوا أكثر حرية وأحسن حالاً من اليهود وليس ذلك غريباً إذا علمنا أن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى في بلاد شبه جزيرة إيبرية كانت متينة عريقة، وأن العصر الأندلسي في الماضي البعيد أسباني نصراني، لذا فإنهم حظوا بقسطٍ وافر من التسامح الديني، فكان يحكمهم حاكم بينهم يسمى . الكونت . ولهم ممثل في البلاد وقاضٍ ومحكمة استئنافية برئاسة الكونت، وكان كثير منهم يُعيَّنون في أرقى المناصب المدنية والحربية.

كما كثر زواج المسلمين بالمسيحيات [2]وبالنسبة للجيوش الإسلامية فقد كانت تضم أعداداً كبيرة منهم معتمدة عليهم في حروبها مع الأعداء.

ثانياً: الحياة الفكرية والأدبية:

اختلف المؤرخون والكُتَّاب في تصوير الحياة الأدبية والفكرية في عصر الأندلس في عهد المرابطين، فمنهم من يرى أن عهدهم كان عهد جهلٍ وظلام، ومنهم من يرى أن عصرهم كان عصر علمٍ ونور.

لعل المؤرخين والكتَّاب الذين رموا عهد المرابطين بهذه التُّهم الشديدة القسوة كانوا يفضلون عصر ملوك الطوائف ويميزونه على عصر المرابطين . والصورة العامة في

([1])صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، طبعة، ليدن 1986، ص205.

([2])تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دكتور حسن إبراهيم حسن، مطبعة النهضة المصرية القاهرة، 1967م، 4–630.

تمييز عصر الطوائف على عصر المرابطين . على حد قول دكتور إحسان عباس (مستوحاة من العصبية الأندلسية....)[1].

فمن هؤلاء الكتَّاب أبو الوليد الشقندي الذي أسرف الثناء على أمراء الطوائف في رسالته التي أوردها صاحب (نفح الطيب) ومن الكتَّاب الذين وصفوا ذلك العصر بالجهل ووسموه بالظلام، المستشرق دوزي الذي يقول في هذا الصدد: (كان مجيء المرابطين إلى بلاد الأندلس نذيراً بانقلاب بعيد المدى، فقد آلت دولة الحضارة وقامت الهمجية على أنقاضها، أما حس الإدراك فقد حلَّت محله الخرافات، ذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نيران الفقهاء والقواد، وبدلاً من أن تسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفة ونشيد الشعراء وغناء أهل الموسيقا بدأنا لا نسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف[2].

وقف مستشرق آخر موقف دوزي أو قريباً منه، وهو المستشرق يوسف أشباخ يقول متحدثاً عن المرابطين إنهم اضطهدوا كل ما عنيت الدولة العربية بتشجيعه من قبل، وطاردوا العلوم الفلسفية والعلوم التي تنكرها التعاليم المرابطية، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها وأحرقوها علناً، وكذلك أُحرقت جميع القصص التي تضمنت قصص الفروسية والقصص العادي[3].

ثم عاد فأكَّد رأيه السابق (كان المرابطون يعملون على سحق جميع العلوم والفنون والصنائع التي بلغت ذروتها في ظل السيادة العربية، فكانوا يطاردون العلماء الذين

([1])ملحمة السيد، دكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بمصر، 1970م، ص 109 .

([2])الشعر في عهد المرابطين والموحدين د. محمد مجيد السعيد الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان ط 2 1985م، ص 61.

([3])تاريخ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، ترجمه وعلق عليه محمد عبدالله، مكتبة الخانقي ، القاهرة، ط2، 1417هـ– 1996م 239/2.

ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون كتبهم، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجد متعتها في قريض الفروسية والقصص العادي، وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب عليها بأشد العقوبات.

أما المؤرخون الذين نعتوا عصر المرابطين بأنه عصر علم وحضارة فلعلهم استندوا في ذلك إلى كثرة العلماء والأدباء والشعراء الذين عاشوا في ذلك العصر، فهذا هو المراكشي يقول في هذا الشأن: (وانقطع إلى أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين من أهل الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار[1].

من كتابنا المحدثين الذين وسموا ذلك العصر بالازدهار العلمي والأدبي (دكتور محمد مجيد السعيد) الذي رد على هؤلاء الذين أجحفوا في حق المرابطين، ولا سيما المستشرقين «ذوي وأشباخ» بين خطل وما ذهبا إليه فهو يرى أن المرابطين لم يقفوا أمام العلوم الدينية واللغوية والأدبية والعلوم الدنيوية المحضة كالطب والنبات، وإنما وقفوا وبشدة ضد الفلسفة وعلم الكلام، وكل ما يمكن أن يمسَّ علم الفروع ومذهب مالك ما يتنافى وتعاليمهم، ثم زاد موقفهم عنتاً وتعصباً سلطان الفقهاء المناهض كلية للتفكير الفلسفي، فكان ذلك مدعاة لمحاربة الفلاسفة والمفكرين الأحرار وإحراق كتبهم كما فعلوا بكتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، بعد أن أصدروا حكماً بتكفير مؤلفه واعتباره خارجاً على الدين بما ينشر من أقوال ضد السنة، كما ذهب ضحية هذه المطاردة

(1)غابر الأندلس وحاضرها محمد كرد علي، ط مصر 1923م ص90.

للتفكير الفلسفي العلامة الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن العريف، حيث نفاه أمير المسلمين علي من بلده المرية إلى مراكش[1].

ثم يعود ليقرِّر: «إذا استثنينا العلوم الفلسفية نقول: إن وصف عصرهم بالجهل والظلام يعتبر ظلماً وإجحافاً في حقهم وبعداً عن الدراسة الميدانية المستقصية، فلا يعقل ظهور أسماء لامعة في زمنهم، وبروز أقطاب في شتى العلوم الإنسانية والدينية، كابن بسام وابن خاقان وابن باجة وابن العربي وابن أبي الخصال وغيرهم، في فترة مظلمة جاهلة، فالحقيقة إذن تكمُن في الحفاظ على المبدأ الذي قامت عليه دولتهم . ذي الصبغة الدينية الجهادية . وخشيتهم عليه من كل ما يمسَّ جوهره وركائزه، أما عدا ذلك فالمرابطون لم يحاربوه أو يمنعوا تداوله إن لم يشجعوه لذا نجد الحركة العلمية والأدبية حافظت على تقدمها وازدهارها في أيامهم[2].

هذه لمحة سريعة لصورة الحياة الأدبية والفكرية في عصر المرابطين عند المؤرخين والكتَّاب، ويجدر بنا الآن أن نعرض لجميع العلوم، من علوم دينية، ولغوية، وأدبية، وفلسفية، وعملية وغيرها، لنرى كيف كان انتشارها في ذلك العصر، وكيف كان اهتمام ملوك وأمراء الدولة المرابطية بها، مع ذكر أهم أسماء العلماء والأعلام الذين برزوا في كل علم.

([1]) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م ص 602 . 603.

([2]) الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، في كلية اللغة العربية وآدابها، ص 17

أ . العلوم الدينية:

توفرت للعلوم الدينية أجواء مناسبة ومناخ ملائم لنموها وازدهارها، فبلغت في عهد المرابطين ذروتها، لما لقيته من تشجيع وإقبال من المسؤولين، فدولة المرابطين قامت على نظرية الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية معتمدة في ذلك على الفقهاء ورجال الدين لتعزيز مواقعها وحكمها، فنفق لدى يوسف بن تاشفين من عنده علم من فروع المذهب المالكي[1] وحصل الفقهاء والقضاة من المكانة بحيث لا يفتى بشيء إلا بعد الرجوع إليهم والاستنارة بآرائهم... ولذلك امتلأت بهم كتب التراجم والسير وإن من يراجع تلك التراجم تذهله الأعداد الضخمة من السالكين طريق الدين والتقوى والمهتمين بشؤون الشريعة حتى يخيل إليه أن الناس ليس فيهم آنذاك سوى التقاة الصالحين المتبتلين المتصوفين، ولا عمل لهم سوى العبادة والورع، فبرز علماء كبار في الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام والزهد والتصوف[2].

ب . العلوم اللغوية والنحوية:

على الرغم من أن ملوك المرابطين لم يكونوا على دراية واسعة بعلوم اللغة ولا سيما العلوم اللغوية والنحوية إلا أن عصرهم شهد نبوغ علماء في اللغة والنحو أمثال: (أبي محمد عبد الله بن السيد البطيوسي (ت 521 هـ)[3] والاشتركوني أبي الطاهر محمد بن

([1]) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي عبد الواحد بن علي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 1963 ص 236.

([2])الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م ، ص 66 – 68

([3])ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال: أحد من تفخر بهم الأندلس من علماء العربية هو من شلب ولازم بطليوس فعُرف بالبطليوسي وله كتاب الجمل وتصانيف في النحو، وكان إلى جانب ذلك فيلسوفاً وله رسالة مطبوعة بعنوان: كتاب الحدائق في مطالب الفلسفة العويصة، ابن

يوسف (ت 538 هـ)[1] من اللغويين والنحويين ابن السيد وابن الياذش (علي بن أحمد) (ت 528 هـ)[2] ومعاصره ابن الطراوة (سليمان بن محمد) (ت 528 هـ))[3].

ج . العلوم الأدبية:

ازدهرت حركة التأليف الأدبي في عصر المرابطين بشكلٍ منقطع النظير في تاريخ الأدب الأندلسي، حيث شهد هذا العصر تصنيف المختارات مثل: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 هـ)[4].

و(قلائد العقيان) لأبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله الأشبيلي الشهير بابن خاقان (ت529 هـ) [5] ، الذي يذكر في مقدمة كتابه أنه زف هذا الكتاب إلى أحد أمراء المرابطين وهو الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ووسمه باسمه بتواضع

سعيد (المغرب في حلي المغرب) تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط، 3، ج 1، ص 385 بلا تاريخ، دكتور شوقي ضيف (عصر الدول والإمارات (الأندلس) طبع دار المعارف بمصر، ص 84 ـ 95، (د.ت).

(1)من كبار علماء اللغة وكان يعاصر ابن السيد البطليوسي وكان له كتاب «المسلسل في الألفاظ العربية» وهو منشور بالقاهرة، المرجع السابق، ص 95.

([2])من كبار النحويين في عصر المرابطين وكانت له شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول والإيضاح لأبي علي الفارسي، انظر المرجع السابق، ص 96 . 97.

([3])ترجم له ابن سعيد وقال عنه: نحوي المرية الذي لم يكن بها في هذه الصناعة مثله وله الذكر السائر في الآفاق، انظر المغرب ج 2، ص 208.

([4])ولد ابن بسام في تشرين سنة 460هـ لأسرة على شيء من اليسار، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وكان إلى جانب موهبته الأدبية يقول الشعر، انظر المغرب ج 1217 . 418 وانظر عصر الدول والإمارات، ص 504.

([5])ولد ابن خاقان حوالى سنة (480هـ) وهو أحد الوزراء الكتاب المصنفين، جال في الفنون الأدبية من الشعر والنثر والتاريخ والتراجم وله مصنفات شهيرة: منها غير قلائد العقيان «مطمح الأنفس» و«رواية المحاسن وغاية المحاسن» وغيرها، مقدمة محقق قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص 7 وما بعدها، تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ط 1، 1409هـ . 1989م.

جمّ وثناء كثير اعترافاً بفضله وتخليداً لرعايته [1] ولعل في هذا دلالة على أنه كان هناك من الأمراء الملثمين من كان يهتم بالأدب ويشجع عليه ويتذوق الشعر ويجزل عليه.

إلى جانب التأليف الأدبي، نجد ازدهاراً كبيراً في كل الفنون الأدبية، فقد عالج الأدباء والكتاب البلاغة والنقد الأدبي، وفن التراجم والسير، وفن المقامات والنثر الديواني والرسائل الإخوانية والتاريخ والجغرافيا والرحلات.

فمن الذين نبغوا في البلاغة والنقد أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت: 550هـ)[2] ومعاصره محمد بن إبراهيم المواعيني (ت: 564هـ)[3].

د . العلوم الفلسفية:

نجد أن حكام المرابطين قد وقفوا موقفاً متشدِّداً من الفلسفة والفلاسفة، وذلك بسبب إخلادهم للفقهاء الذين حجَّروا حرية التفكير الفلسفي، مما سبَّب تحديداً للحرية الفكرية فأصبح كل متفلسف مهدَّداً بالتكفير أو النفي أو القتل أو بها جميعاً [4]، وقد راح ضحية سلوك الفقهاء هذا أبو الحسن علي بن الجودي (ت: 530هـ) تلميذ ابن باجة، حيث اتهم بدينه فطلب ففر مع قطاع طريق بين الجزيرة وقلعة حولان [5]، ونتيجة ذلك أيضاً قام

([1])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 1، الأردن 1409هـ . 1989م، ص 45 – 47.

([2])ترجم له الفتح في المطمح وابن الأبار في التكملة وقال: كان من جلة الكُتَّاب وله كتاب الاقتصار ورسالة أحكام صنعة الكلام، وذكره ابن سعيد في المغرب وقال إنه اعتبط شاباً، انظر ابن خاقان مطمح الأنفس ومسرح التأنس، القسطنينية مطبعة الجوائب، 1302هـ، ص 9 وانظر ابن الأبار (تكملة الصلة)، ، طبع مجريط ص 187 وانظر المغرب ج 1، ص 242.

([3])ترجم له ابن الأبار في التكملة وقال: توفي نحو سنة 507 هـ وعني بالآداب وكتب للولاة، وله تأليفات منها: الوشاح المفصل، وريحان الألباب وريان الشباب.

([4])في الأدب الأندلسي، دكتور جودت الركابي طبع دار المعارف، مصر، (د.ت) ، ص 116.

([5])المغرب في حلي المغرب ابن سعيد المغربي تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر، ج 2، ص 109.

المرابطون بإحراق كتاب الإمام الغزالي «إحياء علوم الدين» لما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع والتنويع، بجهلهم وسخف محاولاتهم السطحية، وقضوا بتكفير مؤلفه واتهموه بالمروق على الدين [1]، كما طاردوا المصنفات الكلامية التي ترفضها التعاليم المرابطية التي أطلق عليها تاشفين بن علي اسم (كتب البدعة) في الرسالة التي أرسلها إلى فقهاء بلنسية وأعيانها[2].

لكن بالرغم من ذلك نجد عدداً من الأعلام الذين لمعوا في العلوم الفلسفية والمنطقية من أمثال: (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت: 529هـ)[3] وابن السيد البطليوسي الذي ذكرناه بين اللغويين، ولعل أهم فيلسوف في عصر المرابطين هو أبو بكر محمد بن الحسين بن باجة التجيبي السرقسطسي المعروف بابن الصائغ (ت: 533 هـ))[4].

هـ . العلوم العملية:

لم يقتصر نشاط الأندلسيين على الميادين الدينية والأدبية والفلسفية، وإنما كانت لهم عناية كبيرة في المجالات العلمية التجريبية التطبيقية، كالطب والصيدلة والعشب والنبات والفلاحة والرياضيات والكيمياء والفلك، ولهم فيها مؤلفات قيِّمة وملاحظات ذكية.

([1])خالد بابكر هاشم الدرديري، الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، في كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم درمان الإسلامية ، ص 20

([2])مقدمة محقق ديوان ابن عبدون الباري الأندلسي، إعداد وتحقيق سليم التنير، ط 1، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا 1408هـ 1988م، ص 29

([3])ولد أبو الصلت سنة 460هـ وانتقل من الأندلس إلى مصر وهو ابن 29 سنة وقد تنقل بين مصر وبلاد الأندلس والمغرب، وله مؤلفات متعددة في الأدب والطب والنجوم والتاريخ، وله ديوان شعر مفقود، غير أن متفرقات من شعره قد جمعت في سفرٍ لطيف الحجم طبع في تونس 1979.

([4])أحد أفذاذ علماء العصر المرابطي إذ كان ذا مذاهب متعددة، فقد نبغ في الفلسفة وعلوم الأوائل وعلم الألحان والغناء، كما كان شاعراً مبدعاً وثائراً بليغاً، وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق بها المتقدمين، وله في الفلسفة كتاب «البرهان» وكتاب «النفس» وقد عني بشرح كثير من أعمال أرسطو مما جعل صاحب النفح يعده بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق.

فمن الذين نبغوا في حقل الطب أسرة بن زهر بأشبيلية، وقد أنجبت سلسلة من الأطباء المشهورين في القرنين الخامس والسادس للهجرة نذكر منهم: (أبو العلاء بن عبد الملك بن زهر [1] طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وابنه علي ونذكر كذلك أخيه عبد الملك [2] طبيب المرابطين ثم الموحدين، وكان طبيعياً أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان ونلتقي في عصر المرابطين بصيدلي كبير هو أحمد بن محمد الغافقي (ت: 559 هـ)[3] ومن الذين نبغوا في علم الرياضيات والفلك ابن أفلح الأشبيلي)[4].

و. الشعر وأهم الشعراء:

ننتقل الآن إلى إلقاء الضوء على حال الشعر والشعراء في عصر المرابطين. ذكرنا من قبل أن معظم المؤرخين والكتاب الذين تناولوا دراسة الأدب وتاريخه قد اتهموا أمراء المرابطين بعدم تشجيع الأدب والأدباء، وبعدم فهمهم وتذوقهم، وقلنا إن مرد ذلك يعود لتحيُّز هؤلاء المؤرخين لأمراء دول الطوائف وتفضيلهم على أمراء المرابطين وفي هذا الشأن يقول دكتور إحسان عباس: (ولما قامت دولة المرابطين، لم يبلغ لهم تشجيع الأدب والتأليف عامة والشعر خاصة، ما بلغه الحال في بلاد بني عباد، غير أن الوضع

([1])هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك جد أبي بكر بن زهر، وهو وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه توفي بقرطبة سنة 525هـ، انظر المطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية زي النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن تحقيق الأستاذ إبراهيم البياري، والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي، ، ط 1993، ص 203.

([2])هو عبد الملك بن زهر، أخذ عن أبيه علم الطب ولم يكن بزمانه من يماثله في صناعة الطب، واشتغل الأطباء بمصنفاته، وقد بقي منها ثلاثة إلى اليوم منها كتاب الاقتصاد في صلاح الأنفس والأجساد الذي ألفه للأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين توفي سنة (557هـ)، عصر الدول والإمارات، ص 79..

([3])هو صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتي نقل عنه، انظر عصر الدول والإمارات، ص 81

([4])هو جابر بن أقدح الأشبيلي له كتاب في حساب المثلثات عرضها بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم، المرجع السابق، ص 75.

في عهدهم لم يكن أسوأ حالاً مما كان لدى بقية دول الطوائف، ولعل الصورة العامة في تميُّز عصر الطوائف على عصر المرابطين في هذا الصدد مستوحاة من العصبية الأندلسية التي يمثلها أثر أدبي كرسالة أبي الوليد الشقندي، فقد أسرف الشقندي في الثناء على أمراء الطوائف [1] وزعم أنه كان أعظم مباهاتهم إلا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني.. وقد سمعت ما كان الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيرات وسمعت عن الملوك العربية: بنو عباد وبنو صادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود كل منهم قد خلد فيه الأمداح ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح، ولميزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض وتفتك في أموالهم فتك البراض [2] وإزاء هذا الثناء أنحى باللائمة والذم على أمراء المرابطين فقال: «وبالله إلا ما سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية: أسبقون الحاجب أم بصالح البرغواطي أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد بشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً ولا رفعوا لملكه قدراً وبعدما ذكروه بواسطة المعتمد فإن المعتمد قال له وقد أنشدوه: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ولما انصرف المعتمد إلى حضرة ملكه كتب ليوسف رسالة يقول فيها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً فكانت بكم بيضاً لياليا

فلما نزل عليه هذان البيتان قال للقارئ: يطلب منا جواري سوداً وبيضاً؟ قال لا يا مولانا ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً؛ لأن ليالي السرور بيض فعاد نهاره

([1]) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين دكتور إحسان عباس ، طبع دار الشروق، عمان 1997م، ص 62.

([2])نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت 1968م، ج 3، ص 190.

ببعده ليلاً؛ لأن ليالي الحزن سود، فقال والله جيد، اكتب له أن دموعنا تجري عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده»[1].

تلك هي الصورة التي رسمها الشقندي لحال المرابطين وليوسف بن تاشفين، خاصة من حيث علاقتهم بالشعر وتقديره وتذوقه ونحن نعلم أن الشقندي يكتب رسالته ليفخر بالأندلس على بر العدوة . موطن المرابطين الأصلي . وفي موقف المفاخرة والمباهاة تهجين وتزيين والأمر لا يعدو أن يكون نادرة تقال على سبيل الضحك والتسلية؛ لأن ابن تاشفين لم يكن يحسن العربية وما من شك في أن أهل المغرب كانوا أثقل حضارة وأقل نصيباً من تقدير الشعر من أهل الأندلس ولكن هذه الأخبار تدل على نقمة الأندلسيين على المرابطين بأكثر مما تدل على تغير حال الأدباء والشعراء يومئذٍ، فالشعراء الذين كانوا في عصر المرابطين هم الشعراء الذين كانوا خلال أمراء الطوائف.

ثم إذا كان هذا القول يصدق على يوسف بن تاشفين فإنه لا يصدق على من جاءوا بعده أو على أمراء المغاربة الذين عاشوا في الأندلس وتشبهوا بالأندلسيين في تقريب الشعراء والأدباء[2].

لعل الجواب لها ما قاله الأستاذ نجومي: «بيد أن الشعر الأندلسي لم يمُت في عصر المرابطين، وكل ما حدث أنه كيَّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به، وقد وجه دوخري كراهته المتأصلة في نفسه لرجال الدين . أياً كانوا . نحو فقهاء عصر المرابطين وأسرف في تعرية الأفارقة من كل ثقافة، واعتبر هذا الجهل المعول الذي هدم صرح الحضارة الأندلسية، لكننا رأينا أن ثقافة إمارات الطوائف لم تكن من نسيجٍ متين

([1])المرجع السابق: ج 3، ص 190– 192.

([2]) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دكتور إحسان عباس، طبع دار الشروق، عمان، الأردن 1997م ص 63 . 64.

قادر على البقاء، ثم إن كل ما هو إنساني مصيره إلى زوال. وعلاوة على ذلك كانت سيادة المرابطين على الأندلس قصيرة العمر . نصف قرن أو نحوه . فلم يتهيأ لها الاستقرار في الأندلس بصورة نهائية ولم يقدر لها كذلك من فسحة العمر ما يهذب خشونتها، إذ كانت أشبه بثمر الحنظل، وكان المشرق إلى ذلك في انهيار متصل، ولم يعد له على الأندلس إلا ظل خفيف حتى سلطانه الثقافي الأول، ولم يكن للشعر الأندلسي عن محيص أن يضمحل ويعيش ماضيه، بيد أنه من الإنصاف أن نقرِّر أن خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الأندلسية القاهرة فأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة، فحفلت دواوين إنشائهم بالناشرين والكتَّاب ممن تخلفوا في عصر الطوائف[1].

ثم إن بعض الشعراء . كما يقول ابن بسام . «لما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس طوى الشعر على غره وبرئ من حلوه ومره إلا نقشه مصدور والثقافة مذعور» [2] ولكن هنالك شعراء آخرين مثل ابن خفاجة كانوا قد صمتوا في عصر الطوائف وانطلقت شاعريتهم ثانية في عصر المرابطين، بل إن هذا الشاعر نفسه يذكر لنا في مقدمة ديوانه أنه انقطع زمناً طويلاً عن الشعر، ولكن الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين جعله ينعطف إليه ثانية[3].

([1])أوليليوغريبة نجومي (الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه)، ، ترجمه عن الأسبانية حسين مؤنس، ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية، بلا تاريخص 57 . 58.

([2])الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1978–1979. ج 2، ص 669.

([3])مقدمة ديوان ابن خفاجة الأندلسي (أبو إسحق إبراهيم ابن عبد الله)، تحقيق الدكتور سيد مصطفى غازي، مطبعة المعارف بالإسكندرية 1960م. ص 7.

لسنا ننكر . كما يقول دكتور إحسان عباس . أن ألق الصبغة الشعرية الذي كان يزيِّن بلاط بني عباد قد ضاع، وأنه ضاع لذلك مجد من يمكن أن نسميه «شاعر البلاط» أو الشاعر الذي كان يبلغ منصباً كبيراً في الدولة، تقديراً لشعره، أما سائر الشعراء فلم يتغيَّر بهم الحال كثيراً، ولسنا نعرف حال الأدب والشعر في عصر المرابطين معرفة شاملة من دراستنا للعلاقة بين الأدب وتشجيع الدولة، فقد رأينا خطأ هذا التصور، حيث عرضنا لموقف أمراء الطوائف من الحياة الأدبية والشعر... من هذا يحق لنا أن نقول إننا في دراستنا للظاهرة الأدبية يجب أن لا نرى في تشجيع الأمراء سر العلة الكبرى[1].

([1])تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دكتور إحسان عباس ، طبع دار الشروق، عمان 1997م ص 64.

المبحث الأول

الشكوى الذاتية الطابع

الشاعر إنسان مرهف، يتأثر فيعبر ويحسَّ فيعكس إحساسه بألفاظ مموسقة وجمل موقعة تشحن بخلجات وجدانه، واهتزازات عواطفه، وانفعالات ذاته، والشعر في معظمه شعر وجداني، يرسم بالكلمات أعماق الإنسان العربي بكل مخزوناتها وتجاربها خلال معاناته الفردية والجماعية الطويلة مع الزمن والحياة والمجتمع، وبكل ما فيها من أفراحٍ وأحزان، من غبطة وألم، من غنى وفقر، واستقرار وضياع، من حبٍ وكره... إلى ما هنالك من تناقضات يعيشها كل إنسان فيسقط بعضها في ذاته ليتكثف، بعد ذلك ويأخذ شكلاً فنياً عند الموهوبين، بالتعبير عنه شعراً أو رسماً أو موسيقا، والشكوى هي الوتر الحزين الشجي في قيثارة الشاعر الفنان، يمنح فيها الكلمات ما تحشرج في فؤاده من غمة وحسرة، وما تفتت في لعابه من مرارة ولوعة، أوجدتها الغربة وقسوتها، أو الدهر ونوائبه، أو الحرب وويلاتها، أو الفقر وعوزه، أو غدر الناس وحسدهم، أو ما قد يصادف المرء من متاعب الحياة الكثيرة، ثم يضفي عليها لوناً كئيباً وظلاً حزيناً يوشحه التشاؤموالألم، ويمسحه الأسى والشجن.

اتخذت شكوى شعرائنا أبعاداً عديدة وأشكالاً كثيرة، فقد يشكو الشاعر الغربة والفراق، والبعد عن الوطن، والأهل والخلان، وقد يلعن الدهر ونكباته وتقلبات لياليه، ويتبرم بالجوع والفقر ويرفض الحرب وما تسببه من ويلات، ويندب الشباب الضائع والعمر الآفل، وأخيراً قد يشكو جحيم الآخرين وغدرهم، وموت الوفاء لديهم... وهذا التشكل والتعدد في الشكوى يثير عدة تساؤلات عن مصدر تلك الأزمات الإنسانية في حياة شعرائنا عن العوامل المؤدية إليها، فهل بات عصرهم من التعقيد والاضطراب والتفسخ

الاجتماعي بالشكل الذي تعطيه دراسة النصوص وهل كان الشاعر محقاً في كل أقواله؟؟[1].

صحيح أن الحروب وما تركته من مجاعات وأمراض، وسببته من مشكلات، كانت تتردد بين فترة وأخرى في تاريخ الأندلس، وإن سقوط المدن ولا سيما، في عصر الموحدين أدى إلى ازدياد هجرة الأندلسيين من ديارهم وترك أوطانهم[2].

وأعز ما لديهم فيها من ذكريات وأمتعة وممتلكات، وأن حب المجد والبحث عن الرزق والتطلع نحو عيشٍ رغيد وحياة أكثر راحة ومالاً، دفعت بعضهم الآخر إلى الانتجاع والرحيل، نحو بلاد قصية وجهات نائية، وإن الثورات الداخلية والسياسية المتعاقبة على الأندلس بما تحمله فيها من تناقضات واختلافات أدت إلى وجود حالة من عدم الاستقرار، واختلال الأمن في أرجاء البلاد، وخلفت مردودات سلبية في نفسية الأندلسيين، نمَّت لديهم حقداً واحتقاراً للزمن والدنيا والحياة. وإن بعض الشعراء، تحت إحساس الاضطهاد والغبن والإهمال من مواطنيهم وفي ديارهم جاء شاكياً باكياً، لانزوائه بعيداً عن البلاطات ونور الشهرة والمجد، لاعناً القدر الذي أوجده في زمن لا يفهمه، وبين أناسٍ لا يعون قوله وفنه.

كل ما سبق، وهو كله أو بعضه من الأسباب الجوهرية والعوامل الرئيسة التي تؤدي إلى نزوع الشعراء نحو هذا اللون الشاكي من الشعر، لكننا في الوقت نفسه، لا يمكن أن نعتبر جميع أشعار الشكوى الواردة عن شعرائنا، تأخذ مدلولاً واقعياً وانعكاساً اجتماعياً، بل يمكن تغيير بعض تلك النفثات الشعرية الباكية اللاعنة، بأنها خفقات ذاتية

([1])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية، خالد بابكر هاشم الدرديري، ص 95

([2])الشعر في عهد المرابطين والموحدين، بالأندلس دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م ، ص 217.

ومردودات آنية ألمَّت بالشاعر، وهي ذات سمة فردية خاصة لا يسمح بشموليتها وتضخيمها وهذا أمر طبيعي في كل المجتمعات البشرية... وهو أمر واقع ودائم في حياة الناس، فليس هناك مجتمع مثالي تنعدم فيه الشكوى، ويختفي السخط والنقمة من قاموسه، فلا يمكن ومن خلال النظر إلى شكوى الشعراء والحكم على العصر بأنه أمواج متدفقة من الفوضى والاضطراب اللا أخلاقي، وسبق أن أشرنا في فصول متقدمة إلى أن الحياة السياسية لم تأخذ طابعاً واحداً أو موقفاً معيناً، وإنما كانت تتغير وتتلون بحسب الظروف، واستجابة لاعتبارات عديدة، فالأوضاع تختلف من حاكم إلى آخر ومن بلد إلى بلد.

من كل ما سبق فإننا نستطيع أن نحصر موضوعات شعر الشكوى عند شعراء المرابطين **في الآتي** :

أولا: الشكوى الذاتية الطابع وتتمثل في:

أ – الغربة والحنين إلى الأوطان

ثانيا: الشكوى القومية الطابع:

أ –الشكوى من الدهر وأهل الدهر.

ب – الشكوى من السجن والنفي والأسر

يظل الشاعر في كل عصر من العصور يتمزق قلقاً وإحساساً بالغربة، ويظل موزعاً بين صورة العالم في مخيلته، كما يمكن أن تكون، وبين ما يراه أمامه حقيقة، من قيمٍ هشة وأخلاقٍ يائسة، تحدد علاقات الناس ومواقفهم، وما يتصاعد أمامه من تناقضات وصراعات متباينة، فبحكم تلك الظروف وضغوطها عاش شعراؤنا غربة نفسية ووطنية،

فالشاعر ممزق بين أن يبحث خارج مدينته، أو وطنه عن طموحه وأحلامه، وبين أن يعيش في إقصاء روحي ونفسي عن أفراد مجتمعه، ويغدو وكأنه أعجمي بين الأعراب، أو كأنه حي بين أموات، وفي غربته هذه ما هو أقسى وأمر من رحيل وانتقال وهجرة، فالحيف والإجحاف والانتقاص تبدو حادة عميقة في أعماق ذاته، تجرحه وتنزف دمه، وتلح عليه، بلا هوادة، فيكون أنينه وشكواه وألمه عنيفاً صارماً، ويتحوَّل المجتمع كله في نظره، حينذاك إلى متهم ويتصاعد، لذلك، بينهما صراع فيه نقمة وتبرم وسخط، مما ستجده عند أبي ابن بقي مثلاً[1].

من الملحوظ أن أشعار الشكوى من الغربة ومعاناة الارتحال عند شعرائنا، تمتزج في . بعض الأحيان . بوصف حنينهم إلى أوطانهم وتشوقهم إلى مرابع أهلهم وخلانهم، إلا أن السمة المميزة لقريض الشكوى عندهم هي شكوى الغربة داخل الوطن، والتبرم من العيش في ربوعه، وبين الأهل وأفراد المجتمع، فغادر أكثرهم أرض الوطن بحثاً عن رزق أفضل وعيش هانئ... وتطلُّع نحو المجد والشهرة التي حرموا منها في وطنهم، إن تضجر هؤلاء الشعراء من الإقامة في ربوع الوطن، لم يكن نتيجة كرهٍ أو ازدراء يكنّوه لمدنهم الجميلة ولبلادهم الحبيبة التي ربتهم بين أحضانها، وأرضعتهم لبانها، وغذتهم بحبها، فليس من المعقول أن تقابل بعد كل ذلك بنكران جميلها، وجحود أفضالها، كما أن بلاد الأندلس لم تكن محرومة من الأسباب الموصلة إلى مراقي المجد، والمحققة لكل الطموحات والآمال التي يتطلع إليها كل إنسان فنان مرهف الإحساس، رقيق الشعور، بل إن هذه البلاد الخضراء الساحرة كانت قبلة تتجه إليها أنظار المبدعين والموهوبين، من شتى بقاع العالم... ولكن يبدو أن تغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية

([1]) انظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1978–1979. ج 2، ص 615

بين الفترة والأخرى، ولا سيما في فترة دراستنا التي خضع فيها المجتمع الأندلسي لنفوذ المرابطين الأفارقة القادمين من الصحراء.. مع الاختلاف الكبير بين قيم ومفاهيم المجتمعين كبير، وأن هذا الوضع السياسي والاجتماعي الجديد جبر عدداً كبيراً من الأندلسيين على الهجرة وترك البلاد، وخاصة الشعراء الذين كانوا أول المصطلين بنار ذلك الوضع الجديد، كما ذكرنا في بحثنا هذا أن العهد المرابطي أعلى منزلة الفقهاء ورجال الدين، وجعل كلمتهم نافذة مسموعة، في حين أهمل الشعراء وحد من تأثيرهم الاجتماعي، لذلك ارتفعت صرخات الشعراء شاكية باكية من الغبن والحيف، اللذين لحقا بالفن عامة، ومن ثم تولد لديهم ذلك الشعور بالعزلة عن المجتمع، وانقطاع سبل التفاهم وإيصال الأفكار بينهما، حتى يغدو الشاعر وكأنه وضيع بين الأعاجم أو حي وسط المقابر، يقوم بينهما جدار صلد لا يمكن إزالته أو اجتيازه إلا بهدم تلك القيم والمفاهيم التي تقلل من قيمة الشعر الفنية والأدبية[1].

لعل أشعار ابن بقي تمثل لنا هذه العزلة بين الحاكم المرابطي والشاعر الأندلسي أحسن تمثيل، كما أنها تصور الشكوى من الغربة والتشرُّد والضياع خير تصوير، فقد كانت حياة هذا الشاعر منذ نعومة أظافره تغرباً مستمراً ورحلة دائبة. حيث أخرجته فتنة طليطلة وهو صغير السن [2] من مدينته إلى الأبد، وفقد على إثر تلك الفتنة أسرته ومأواه، فبقي مشرداً متغرِّباً، لا يقرُّ له قرار ولا يسكن له جوار، ولم يعرف طوال حياته الاستقرار والوجود، ولا العيش في دعة وركود، فقد طغى عليه حرمانه، وما صفا له

([1]) انظر قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م، ص 919.

([2])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، خالد بابكر هاشم الدرديري، ص 97

زمانه، فصار قعيد صهوات وقاطع فلوات...) [1] ويبدو أنه اتخذ من إشبيلية مستقراً له إلى حين.

لعل كل ذلك يُفسِّر لنا كثرة أشعاره الشاكية من الغربة وآلامها، ويعكس أيضاً كثرة تبرمه وشكواه من قومه وثورته عليهم، التي كان يشعل جذوتها شعوره بالإخفاق، وإحساسه بالإهمال والازدراء، اللذين قوبل بهما في ربوع وطنه، ويؤجج أوارها الظلم والحيف، اللذين ميز بهما عن أبناء جلدته الذين لم يقدِّروا مواهبه الأدبية، ومكانته العلمية، مما ألَّم أعصابه، وأثار حفيظته، وعمق غربته النفسية، وكثفها بشكل مُلحٍ وعنيف:

وضيعني قومي لأني لسانهم إذا أُفحم الأقوام عند التكلم

وطالبني دهري لأني زنته وإني فيه غرةٌ فوق أدهم [2]

يقول ابن بقي متردداً في البلاد على كل باب:

إلى الله أشكوها نوى أجنبية لها من أبيها الدهر شيمةُ ظالم [3]

إذا جاش صدر الأرض بي كنت منجداً وإن لم يجش بي كنت بين التهائم

يتساءل الشاعر بحرقة وألم ودهشة واستغراب، عن الأسباب التي أدّت لضياع فنه وخمول شأنه، وللظلم الذي طوق حياته، والحظ البائس الذي حاصره، فلم يجد تفسيراً لذلك إلا لأنه طلب العلا منذ الصبا، وقد لا تكون له جريرة اقترفها في زمانه سوى كونه أديباً.

([1])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ. 1989م، ص 919.

([2])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، خالد بابكر هاشم الدرديري،ص 98

([3])مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، محقق شعره : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977، ص 146.

أكل بني الآداب مثلي ضائع فاجعل ظلمي أسوة في المظالم

أم الظلم محمول عليَّ لأنني طلبت العلا من قبل حل التمائم

تبكي قوافي الشعر ملء جفونها على عربي ضاع بين أعاجم

ولا ذنب لي عند الزمان علمته سوى أنني للشعر آخر ناظم

لذا فهو يرسل حرقاته المدوِّية إلى أقرانه، الذين جمعت بينه وبينهم حرفة الأدب، شاكياً لهم تلاشي آماله وإرخاص دهره إياه وتعنيفه له، كما يشكو مدينة «حمص» و«إشبيلية» التي ضيقت عليه رزقه، فيقول:

أخلاي والآداب تجمع بيننا وبعض طباع لست أقصى على كل

ذوي أملي عند اهتزاز غصونه وأرخصني الدهر الذي كان بي يفلي

منى النفس في حمص وحمص لذي الحجى فروك لأمر ما تصد عن البعل

نبت بي كما ينبو الجبان بنصله ويحمل ما يأتيه ذنباً على النصل

مما لا شك فيه أن شاعرنا لم يكن يضمر لمدينة إشبيلية أي كره أو بغض، بل كان يكن لها كل الحب والود، بيد أنه لم يجد فيها فرص العيش الكريم، كما أنها أغفلت عبقريته، ولكل ذلك يئس من اهتمام أبناء جلدته به، والتفاتهم إليه، وتقديرهم لمكانته، فنفض يده من العيش بينهم، وقرَّر الرحيل من إشبيلية بل حتى الأندلس كلها، متهماً أهلها بالبخل والاقتار[1]:

قالوا تغربت عن أقطار أندلس ومن يقيم على هون وإقلال

(1)الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، خالد بابكر هاشم الدرديري، ص 99

مالي وإيطانها داراً وقد سئمت من المقام بها خيل وأجمال

نفضت فيها من العيش الهنئ يدي وهل يعيش كريم بين بخال

كانت أنظاره تتجه صوب المشرق موطن الأهل والأجداد الأصلي، ولتكن وجهته إلى بلاد الشام أو العراق. لعله يجد هناك من يفهمه، ويقدِّر فنه، ويعلي شأنه:

ولي هِمَمٌ ستقذف بي بلاداً نأت إما العراق أو الشاما

لكيما تحمل الركبان شعري بوادي الطلح أو وادي الخزامى

وكيما يعلم الفصحاء أني خطيب علم السجع الحماما [1]

ويقول:

أنا امرؤ إن نبت لي أرض أندلس جئت العراق فقامت لي على قدم [2]

يبدو أن ابن بقي توقف في مدينة «سلا» بالمغرب أثناء رحلته إلى العراق أو الشام، فاتصل بأميرها أبي القاسم يحيى بن عشرة، ومدحه بقصائد، ثم استحوذ بعدها على حب الأمير وتقديره، ونال إعجابه، فأكرمه أحسن ما يكرم به الموفد وأطعمه في البقاء لديه، وأثناه عن عزمه وقصده في الرحيل إلى المشرق، قطع رحلته، واستقر به المقام وطاب له المكان وهدأ باله، وكان كما وصفه المعري نقلاً عن المطمح: «إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه من ذلك الطيش وأقطعه جانباً من العيش، وأرقاه إلى سمائه، وسقاه صيب نعمائه، وفيأه ظلاله، وبوأه أغر النعمة يحوس خلاله...)[3].

([1])مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، محقق شعره : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977، ص 144.

([2])مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، محقق شعره : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977، ص 148.

([3])نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت 1968م، ج 4، ص 237

ففي أشعار ابن بقي وتوشيحاته ثناء جميل، وود صادق لأسرة بني عشرة، من ذلك قصيدته الطويلة التي قالها يمدح فيها الأمير يحيى، ويثني عليه ثناءً عاطراً على ما أغدقه عليه من نعم، فقد أقاله من عثاره، وأخذ بيده، وأنصفه مما لحقه من وحشةٍ وضياع وخمول في الأندلس، فيقول:

وقد وثقت على العلات من زمني أن سوف ينسخ إدباري وإقبالي

أما وتبريز (يحيى) في السيادة لا بكيت دهري من حط وإخمال

حسبي به من أبي الدهر منتقص أرمي به الدهر لا أرمي بأنبالي

أقالني من عثاري آخذاً بيدي ندبٌ به أورقت أغصان آمالي

لكن يبدو أن هذه العلاقة الطيبة من الود والصفاء سرعان ما شابها الكدر والجفاء، لذا ترى الشاعر ينقلب على أهل نعمته، ويهجوهم متهماً إياهم بالعدم والبخل والاقتار فقرر الرحيل عنهم وترك بلادهم، والعودة إلى بلاده[1].

لا ندري ما السبب الذي أفسد علاقته بممدوحيه؟ ولماذا قرر العودة إلى بلاده؟ ومتى عاد؟ فربما يكون السبب بعض الوشاة والحساد الذين حسدوه على الحظوة والمكانة المرموقة التي وجدها عند تلك الأسرة، أوقعوا بينه وبين ممدوحيه.. وقد يكون هنالك من أساء إليه وجرح شعوره، وهو . كما تحس من شعره . شديد الاعتداد بنفسه مفرط الإحساس، وقد يرجع السبب إلى نفسه القلقة المضطربة التي لا تستقر على حال، وقد يُعزى السبب . كما يرجح أحد الدارسين . إلى مرض نفسي يوهم لهم أشياءً لا حقيقة لها، وهو ما عناه ابن خاقان بقوله عنه: فصار قعيد صهوات وقاطع فلوات، مع توهم لا

(1)مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، محقق شعره : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977، ص 148.

يظهره بأمان، وتغلب ذهن كواهي الجمان. وهكذا وجد ابن بقي نفسه مصاباً بخيبة أمل مرة أخرى، لعلها جعلته يصرف النظر عن مواصلة رحلته التي كان يمني بها نفسه إلى المشرق، فالمشرق لم يكن بأحسن حالٍ من المغرب والأندلس، فرجع قافلاً إلى الأندلس يحث خطاه نحو اللا هدف وبلا غاية، جاراً أذيال الخيبة والندم:

أوْغَلْتُ بالمغرِبِ الأقصَى وأعجزني نيلُ الرغائب حتى أُبتُ بالندمِ [1]

يبدو أن كل ما مر به الشاعر من تجارب مريرة، وصدمات عنيفة، جعلته يفقد الثقة في كل شيء، حتى في نفسه فتحوَّلت ثورته إلى بركان، وصرخاته إلى حمم، فلعن المجتمع، ولعن حرفة العلم والأدب، فليس غير الرمح لسان، ولا غير القوة منطق يمكن أن يسمع أولئك الجهال، فتحوَّلت نقمته إلى ذاته وإلى فنه، فأخذ اليأس يصيب شاعرنا ويغلق خياله فيجرفه في تياره، مستسلماً في قنوط وتخاذل[2]:

ما العيشُ بالعلم إلا حيلةٌ ضعُفَتْ وحرفةٌ ولكنْ بالقعد البرم

لا يكسرُ اللهُ متن الرمح إن به نيل العُلا وأتاح الكسر للقلمِ

ولا أراق دماً من باسل بطلٍ ومات كل أديب عبطةٍ بدمِ

وتحمل أشعار الأعمى التطيلي في الشكاية من الغربة ذات المفاهيم التي تحملها أشعار ابن بقي وتدور في الإطار نفسه، فهو يشكو ضياع الشعر كفن، وضياع الشعراء كفنانين مبدعين، بل يتحول لديه الشعور بالضياع الفردي إلى شعور وضياع جماعي،

([1])المصدر السابق، ص 148.

([2])مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، محقق شعره : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977، ص 104.

حيث يصور انحدار حال الشعراء بالنسبة للفقهاء، وتحس في شكواه نقمة شديدة على حكام المرابطين، حيث يقول:

أيا رحمَتَا بالشعْرِ أقوت ربوعه على أنه للمكرمات مناسكُ

وللشعراء اليوم ثلث عروشهم فلا الفخر مختالٌ ولا العز تامكُ [1]

إذا ابتدر الناسُ الحظوظ وأشرقتْ مطالب قومٍ وهي سُودُ حوالك

رأيتُهُمُ لو كان عندك مدفعٌ كما كسدت خلف الرتال الترائكُ [2]

فيا دولة الضيم اجملي أو تجاهلي فقد أصبحت تلك العرى والعرائكُ

ويا «قامَ زَيدٌ» اعرضي أو تعارضي فقد حالَ من دون المُنى: (قال مالكُ) [3]

حتى أشعاره وقوافيه كانت تشعر بذلك الضنك، وتحس بتلك الغربة والعجمة، حيث يقول شاكياً تلك الحال في قصيدة يمدح بها أبا العباس صاحب الأحباس في إشبيلية، قائلاً:

عاجت عُلاه على القوافي عوجةٌ نقضت دمام رسُومهَا الأدارسِ

في حين أوحشها الزمان وأهلُهُ واستفحمت من غربة وتناسي

ومحا بشاشتها الخمولُ فأطرقتْ وكأنها آناء ليل نحاسي [4]

([1])تامك: مرتفع.

([2])الرتال: فراخ النعام، الترائك: جمع تريكة وهي البيضة.

([3])ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق:د. إحسان عباس ، نشر دار الثقافة ، ط 1، بيروت ، 1936، ص 90. 91

([4])المرجع السابق، ص 75.

هو أيضاً يشكو (حمصاً)، كما شكاها معاصره وصديقه ابن بقي، ويصور في غير موضع من شعره مللله وسأمه وضيقه من الإقامة فيها، حيث يقول[1]:

وقائلة: ما بال حمصَ نبَتْ بهِ ورُبَّ سُؤال ليس عنه جوابُ

نبتْ بي فكنت العُرف في غيرْ أهلها يعودُ على أهليه وهو بباب

غير أننا نحس من شكواه المتعلقة بمدينته أن فراقه لا يهون عليه، بل ويتمنى لها كل الخير ولكنه يتألم بشدة لما يلقاه فيها من الإهمال والتضييع.

نبتْ بي حمصٌ جادها كل مرهَمٍ تهل الربى بالشكر أيان يهمعُ

وما كنت أخشى أن أُحل سلوةٍ بها غصصٌ من أهلها وهي بلقعُ

وما أخملوني لكن المجد أخملوا وما ضيعوني ولكن العلم ضيعوا

وبين ضلوعي مالو أن أقله بأكتاف رضوى أوشكت تتصدعُ

لكن يتضح من بعض أخباره وأسفاره أنه رحل عنها إلى قرطبة، واستقر بها حيناً من الزمن، بيد أنه ما لبث أن عاد إليها، وعادت معه شكواه القديمة الأليمة، إذ يقول[2]:

مللتُ حمص وملتني فلو نطقت كما نطقت تلاحينا على قَدَر

وسولت لي نفسي أن أفارقها والماءُ في المُزن أصفى منه في القدر

هيهات بل ربما كان الرحيل غداً كالمال أحي به فقراً من العُمر

([1])المرجع السابق نفسه، ص 160.

([2])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، خالد بابكر هاشم الدرديري، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، في كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم درمان الإسلامية ، ص 101.

من الشعراء الذين عالجوا الغربة في شعرهم ابن خفاجة، في ديوانه جملة قصائد طوال تتقارب في معانيها وصورها، ويتكرر فيها موضوع واحد، هو رحيله الدائم وتنقله المستمر عبر الفيافي متسربلاً بالليل الفاحم البارد، ذابل القوام، نحيف البنية، شاحب اللون:

وليلٍ كما مدَّ الغراب جناحهُ وتسأل على وجه السحل مدادُ

به من وميض البرق والجوُّ فحمةٌ شرار ترامى والغمام زناد

سريت به أحييه لاحية السرى تموت ولا ميت الصباح يعاد [1]

سحيقٌ ولا غيرُ الرياح ركائبٌ هناك ولا غير الغمام مزاد

كأني وأحشاء البلاد تحس سريرة حب والظلام فؤاد

أجوب جيوب البير والصبح ضارم له الليل غمدٌ والمجر نجاد

وطالما صادفه الذئب في ترحاله الليلي، فيدور بينهما صراع البقاء، ولعله يرمز به إلى قمة المعاناة وشراسة الأعداء الذين يتربصون به، ويتحينون الفرص، فما أشبههم بذلك الذئب المتنكر المتربص:

وأطلس زوار مع الليل أغبش سرى خلف أستار الدجى يتنكر

تثاءب من مس الطوى فهو يشكي فيعوي وقد لفته نكباء صرصر

ودون أمانيه شرارة تلزمٍ يُغلب فيها مثلما حيث ينظر

(1) المرجع السابق ، ص 102.

فمن جوعه تقربه لي، فهو مُدنٍ ومن روعة تثنيه عني فيعصر [1]

صورة الذئب تلازم الرحلة، فتتحد معها، لتعطي مقدار تحدي الشاعر لقدره، ووقوفه قوياً صلباً أمام ظروفه، فهو حينما يقطع أمل العودة إلى الوطن، ويحس أنه بلا استقرار ولا أمان يتساءل بحزن وألم:

فيا ليت شعري هل لدهري عطفة فتجمع أوطاري علي وأوطاني [2]

كأنه يدرك أن ذلك محال، مما يضطره لركوب ظهر السرى وقطع الصحارى ليبلغ المنى ويحقق حلم العودة:

لقد ركبت ظهر السُرى بي نومةً فأصبحت في أرضٍ وقد بت في أخرى

فها أنا لا نفسٌ يحف بها الفتى فيلهى ولا سمعٌ تطير به بشرى

أقلبُ حفناً لا يجف فكلما تأوهت من شكوى تأملت في شكري [3]

ومن الشعراء الذين تناولوا الشكوى من الغربة في شعرهم ابن حمديس، فقد كانت حياته رحلة مستمرة وتنقلاً دائباً، وطموحاً كبيراً نحو تحقيق الذات، بل إن أشعاره في هذا اللون تعد من أروع شعر شعراء عصره، فهي تغص بالأنين والصرخات المدوِّية، فقد اضطر شاعرنا إلى مفارقة وطنه الحبيب «صقلية» ومدينته الجميلة «سرقسطة» وارتحل إلى الأندلس وهو في ريعان الشباب، بعد أن استولى عليها التورمان، فحمل شاعرنا عصا

([1])ديوان ابن خفاجة ، ابو اسحق إبراهيم ابن عبدالله ، تحقيق : د. سيد مصطفى غازي ، مطبعة دار المعارف بالأسكندرية ، طبعة دار الجيل بيروت، لبنان ، 1960، ص 63 . 65،

([2])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية ، د . خالد بابكر هاشم الدرديري، ص 102

([3])ديوان ابن خفاجة ، ابو اسحق إبراهيم ابن عبدالله ، تحقيق : د. سيد مصطفى غازي ، مطبعة دار المعارف بالأسكندرية ، طبعة دار الجيل بيروت، لبنان ، 1960، ص 419 . 420.

الترحال، وضرب في الآفاق،وجاب نجاد الأرض ووهادها، وصحاريها وبحارها، وسهولها، وجبالها، ولم يكل من مسير النهار، ولم يضق ذرعاً بسرى الليل، حيث يقول مصوراً اضطرابه في الآفاق

ما قرّ بي السير في سهل ولا جبل إلا كما قر جاري الماء في صبب

ولم أضق في السرى ذرعاً بمعضلة قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي [1]

فهو في غربة مستمرة لا تلوح لها نهاية في الآفاق:

وهاهي إلا غربة مستمرة أدى الشيخ فيها بعد سن غلام

مع ذلك فقد اختزنت في ذاكرته ضروباً من الذكريات التي ظلت زاداً لنفسه الهائمة بالعودة، وظل يحن إلى ذكرياته في وطنه الجميل ذي المناظر الخلابة، وظل ينزع إلى ليالي الحب والمغامرات والأديرة والحانات، ولما رأى النيلوفر مرة وهو مغترب هتف يقول:

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الأوطان أزعجه الدهرُ

ويقول في الغزل:

رشا أحِنُ إلى هواهُ كأنه وطن ولدت بأرضه ونشبتُ

ويقول واصفاً كتمان السر:

يقرُ قرارُ السر عندي كأنه غريبُ ديار فال في وطن: حسبي

ولم يمحُ كر الأيام والدهور صورة الوطن من مخيلته، ولم يستطِع أن ينتزع حبه من نفسه، وهو في ذلك على النقيض من شعراء وطنه، فليس بين شعراء الأندلس والقيروان

([1])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 17.

من عاش على ذكرى وطنه كما عاش ابن حمديس؛ لأن لوعة الفراق المباشر عن أولئك هي التي أزكت نار الشعر، ثم خمدت النار وسارت الحياة بهم سيرها العادي، أما ابن حمديس فظل غريباً حيث حل لانبوء في طبعه، وإنما لتجسم في الوطن خلال مشاعره، ولم يستطِع أن يقول كما قال مواطنه أبو العرب الصقلي:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي [1]

وظل هذا الشعور ـ كما يقول محقق الديوان ـ شيئاً فذاً في إلهام ابن حمديس؛ لأنه بقي يحس حتى آخر يوم من حياته أنه غريب، فلا عجب إن قدرت أن الغربة هي أقوى قوة حركت شاعريته الصحيحة[2].

لعل قصيدته اللامية الطويلة التي عارض بها المعري تعكس لنا شعوره القوي بالوطن، فقد مزج فيها الغزل وذكريات الطفولة، فتغير الحال والتشوق إلى الأوطان، ولم تكن معارضته للمعري إلا أمراً عارضاً لم يؤثر كثيراً في طبيعة الدوافع الداخلية، يقول في بعض أبياتها:

فورقاء لم تارق بحزن جفونها وبلبلة لم يدر منها الأسى بال

وأذكرتني عصر الشباب الذي مضى ليردي فيه بالتنعم إسال

ونضرة عيش كان همي جامداً به حيث تبرى في الزجاة سيال

ودار غدونا عن حماها ولم نرح ونحن إليها بالعزائم قفال

---

[1] ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 73

[2] ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 18.

بها كنت طفلاً في ترعرع شرتي ألاعب أيام الصبا وهي أطفال

ألا حبذا تلك الديار أو أهلها ويا حبذا منها رسوم وأطلال

ويا حبذا منها تنسم نفحةٍ تؤديه أسحار إلينا وآصال

ويا حبذا الأحياء منهم وحبذا مفاصل منهم في القبور وأوصال

ويا حبذا ما بينهم طول نومةٍ تنبهني منها إلى الحشر أهوال [1]

يتمثل إحساسه الراسخ بالوطن أيضاً في شعره الذي يحض فيه أهل وطنه على جهاد الأعداء الروم، ويأمرهم أن يتمسكوا بالوطن، ويموتوا فيه ولا يطمئنوا إلى الغربة؛ لأنها ذل أينما كان المغترب:

ولله أرض إن عدمتم هواءها فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم

وعزكم يفضى إلى الذل والنوى من البيت ترمي الشمل منكم بما ترمي

فإن بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارُها والحلمُ كالجار والحلم

تقيد من القطر العزيز بموطن ومُت عند ربع من ربوعك أو رسم

وإياك يوماً أن تجرب غربة فلن يستجير العقل تجربة السم[2]

راودته فكرة العودة إلى بلاده، ولكن ثمة عوائق حالت دون تحقيق أمنيته، فقد تشتَّت أهله وأصحابه، فمنهم من اختطفته يد المنون، ومنهم من وقع تحت براثن حكم الروم، فعزَّ

([1])المصدر السابق، ص 18.

([2])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية، د. خالد بابكر هاشم الدرديري، ص 105.

عليه أن يعود فيشاهد بأم عينيه الذل والهوان، ومع ذلك أخذ يمني نفسه المشبعة بالكآبة المتوهجة باللوعة، باللقاء، فهو يرى أن الغربة والموت سيان:

تفرقتم في البين في كل وجهة نسير جمان في انطقاع نظام

فحزبٌ يكف الدهر عنه عزيمتي وحزب ترد الروم عنه مرامي

سأعطي بشيراً قال لي: قد تجمعوا ثواب صلاتي طائعاً وصيامي [1]

وأرقب يوماً فيه بالوصل تلتقي سجام دموع بيننا بسجام

مشى آتكم ينشر لكم من ضريحه دفين اغتراب لا دفين رغام

على الرغم من ذلك عجز عن أن يطوع نفسه للعودة، وأخذ يعلل نفسه بأنه آثر صحبة رجل عظيم هو المعتمد بن عباد الذي أطال فيه المدائح ونال جوائزه «وعطاياه» وحقق الشهرة الأدبية، ورضي بحمص موطناً له، غير أن الزمان أبى أن يترك شاعرنا ينعم بالاستقرار والرجوع، ولم يكن يدري أن الأيام تخبئ له ولممدوحه الأثير ما لا يسر، فبعد استيلاء المرابطين على الأندلس قيد ابن تاشفين المعتمد وحبسه في أغمات، وتلفت ابن حمديس حوله وكأنه لا يصدق ما حدث، مرة أخرى تسقط صقلية الثانية، ويضيع وطنه الجديد، ومن ثم حمل الشاعر عصا الترحال مرة أخرى، ممتطياً غارب الاغتراب هائماً على وجهه، وعاش بقية عمره في تنقل دائب وترحال مستمر وكأنه سندباد بري، إذ تنقل في العديد من البلاد والمدن الإفريقية، كأغمات وسلا والمهدية وبجاية وبونة وتاجنة

([1])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 427.

وقابس وسفاقس ومورقة وسبتة، وقضى أواخر عمره أعمى يائساً، إلى أن توفي ببجاية سنة 527هـ ، وكذا قدر لهذا الشاعر أن يموت غريباً كما عاش غريباً[1].

ج: الغربة والحنين:

الحنين بابٌ قديم في الشعر العربي، ولكن الأندلسيين ضربوا فيه بسهمٍ وافر، وصوروا فيما نظموه فيه عن عاطفة صادقة وإحساس مرهف.

لقد قُدِرَ للأندلسيين أن يعيشوا محنة اغتراب مريرة بعد انتشار عقد الأندلس وسقوط معظم مدنها في أيدي النصارى فقوض كثير من الأندلسيين خيامهم ورحلوا عن وطنهم، وتركوا معاهدهم وديارهم وفارقوا أهلهم وأحبابهم إلى غير رجعة وتقاذفتهم البلاد والفلوات وذاقوا مرارة التشتت والضياع فألقى بعضهم عصا التسيار في المغرب ورحل بعضهم إلى المشرق، وكانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فجرى على لسانهم شعر كثير يصور هذه النزعة... ويصف ما كان يضطرم في نفوسهم من مشاعر الشوق والحنين إلى ديارهم. فمن ذلك قول ابن حريون:

لله ما هاج لمع البارق الساري على غريب نازح الدار

كان الصبا وطرى إذ كنت في وطني فقد فجعت بأوطاني وأوطاري

فأين تلك الربى والساكنون بها وأين فيها عيشاتي وأسراري

ما للزمان (الأحر ينهنهه؟) يفري أديمي بأنياب وأظفار [2]

([1])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 434.

([2])الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات،الدكتور فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011، ص 103.

هذه الأبيات مجتزأة تعبر عن أحاسيس الشاعر المغترب الذي فجع بضياع وطنه وعانى من التشتت والاغتراب وغدا فريسة سائغة بين أنياب الزمان وتلمس فيها حدة الشعور بالغربة وتلك سمة عامة في أشعارهم إذ كانوا قريبي العهد بمفارقة وطنهم، باعث هذه الأشعار هو الاغتراب والبعد عن الوطن، وقد كان للأندلسيين نصيب كبير من هذا الاغتراب، إما بسبب الرحلة العلمية إلى المشرق وإما بسبب الرحلة في طلب الرزق بين مدن الأندلس نفسها أو خارج الأندلس فقد كان أكثر المغتربين من الشعراء الذين أجادوا في رسم لوحات رائعة من الحنين والشوق، جعلت مؤرخي الأدب على اختلاف مشاربهم يعجبون بها ويدونونها في مصادرهم[1].

وقد ذهب بعض النقاد المحدثين إلى أن الأندلسيين توسعوا في أشعار الحنين أكثر من المشارقة أنفسهم، نتيجة لكثرة الرحلات العلمية التي كان يقوم بها طلاب العلم الأندلسيون، وأكثرهم من ذوي القلوب والأقلام الشاعرة.

أهم المعاني التي تناولتها أشعار الحنين هي: الشوق إلى الأوطان، وصف أحوال المغتربين في ديار الغربة، تصوير ذكرياتهم السابقة في أوطانهم، مدح الاغتراب وذمه، وصف الحنين في صور متنوعة، تفضيل الوطن مع الافتقار على الاغتراب مع الغنى... إلخ[2].

تحدث الشعراء عن المتاعب والآلام التي تعرضوا لها في مواطن الهجرة ووصفوا ما قوبلوا به من جفوة وتغير في المعاملة وتلاحظ أنهم يكثرون من ترديد الشكوى في سوء

([1])الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات،الدكتور فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011، ص 103.

([2])دراسات في الأدب الأندلسي،العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003، ص 141.

معاملة المشارقة لهم فكانت صفة المغربي إحدى الصفات التي تلتصق بهم وتؤرقهم؛ لأنها كانت في نظر بعض الناس تقترن بالجفوة والخشونة.

ويعبر ابن سعيد عن مشاعر الضيق التي تنتابه لإلصاق تلك الصفة به ويصف آلام الغربة التي يعانيها ويشكو من أنه أصبح في مصر خاملاً مهملاً تبوء عنه الألحاظ وتزدريه الأعين فيقول بعد أن وصف حياته الهانئة التي عاشها في وطنه[1]:

هذه حالي، وأما حالتي في ذرا مصر ففكري متعب
ها أنا فيها طريد مهمل وكلامي ولساني مغرب
وأدى الألحاظ شبو عندما أكتب الطرس أفيه عقرب
وإذا أحسب في الديوان لم يدركنا بهم ما أحسب
وأنادي مغربياً ليتني لم أكن للغرب يوماً أُنسبُ [2]

أهم ما يميز الأشعار الأندلسية الواردة في شعر الحنين صدق العاطفة وروعة التعبير ورقة الألفاظ والموسيقا الهادئة أحياناً والثائرة أحياناً أخرى لتوائم تموجات النفس وانفعالاتها نظرة لروعة النصوص الواردة مما يدل على إبداع كبير لدى الشاعر الأندلسي كان نتيجة لتجربة صادقة وذوق راقٍ وامتلاك لناصية اللغة كبير وفيما يلي من الاختيارات ما يؤيد ذلك.

قال ابن عائشة في الحنين إلى مدينة شقر وتذكر أيام الشباب:

ألا خلياني والأنس والقوافيا أرددها شجوي فأجهش باكيا

أؤبِّن شخصاً للمروءة نابذاً وأندب رسماً للشبيبة باليا

([1])الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات،الدكتور فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011، ص 103.

([2])المرجع السابق، ص 103.

تولّى الصِّبا إلا توالي فكرة قدحت بها زنداً من الوجد واريا [1]

وقال ابن الحداد يتشوق إلى المرية وهو بتدمير:

يا غائب خطرات القلب محضرة الصبر بعدك شيء لست أقدره

تركت قلبي وأشواقي تقطره ودمع عيني آمانق تقطره

لو كنت تبصر في تدمير حالتنا إذاً لأشفقت مما كنت تبصره

فالنفس بعدك لا تخلى للذاتها والعيش بعدك لا يصفو مكدره

أُخفي اشتياقي وما أبديه من أسفٍ على المرية والأشواق تظهره [2]

ولعل أروع هذه النصوص قول عبد الملك بن حبيب السلمي يتشوق إلى الأندلس وهو بالمشرق:

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ألا كل غريب إليَّ حبيبُ

فيا جسداً أضناه شوق كأنه إذا نضبت عنه الثياب قضيب

وياكبداً عادت رفاتاً كأنما يلدغها بالكاويات طبيب

بليت وأبلاني اغترابي ونأيه وطول اغترابي بالحجاز أجوب

أهلي بأقصى مغرب الشمس دارهم ومن دونهم بحر أجش مهيب

فما الداء إلا أن تكون بغربة وحسبك داء أن يقال غريب

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بأكتاف نهر الثلج حيث يصوب

([1])معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين ابوعبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1955، ج5 ص 282.

([2])معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين ابوعبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1955، ج2 ص 372

وحولي شيخاني وبنتي وأمها ومعشر أهلي والرؤوف مجيب [1]

فهو يبدأ بالحنين إلى كل ما هو غريب؛ لأنه يذكره بموطنه في الغرب، ثم يصف ما أصاب جسمه من ضنى وكبده من حرقة نتيجة لهذا الحنين الجارف، ثم يصف بعض الصعوبات التي تواجه عودته إلى الوطن ويعرج بعد ذلك على وصف مرابع ذلك الوطن، ويكاد يذوب شوقاً وهو يتصور نفسه بين أهله وأصحابه. وقد اختارتعابير جميلة وصدق في العاطفة كبير، وموسيقا هادئة تلائم هذا الاحساس والشعور ليعبر عن كوامن نفس الشاعر وخباياها[2] .

ونذكر فيما يلي ما يوظفه أبو الطاهر الحسيني[3]في الحنين إلى ذكر الوطن في قوله:

يقول الناس في مثل .. . تذكر غائب ترهُ

ما لي لا أرى وطني.. ولا أنسى تذكره

كان ابن سعيد أحد الشعراء الذين تعمقت تجربة الغربة في نفوسهم فتراه في قصيدة أخرى يشكو من أنه أصبح يعترض الوجوه فلا يعرف أحداً من الناس ولا يعرفه أحد منهم، ويبدو وحيداً تائهاً في عالم ينكر الغرباء وهنا تتجسد أمامه صورة الوطن الأم ويدرك ما تحمله تجربة الاغتراب من مرارة وألم يقول ابن سعيد:

أصبحت اعترض الوجوه ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريه

عودي على بدئي ضلالاً بينهم حتى كأني من بقايا لاتيه

([1])دراسات في الأدب الأندلسي،العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003، ص 143.

([2])دراسات في الأدب الأندلسي،العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003، ص 143

([3])هو أبو الطاهر إسماعيل بن مسعود الخشني، المعروف بابن أبي الركب، أديب فاضل وشاعر بارع، المقتضب من التحفة: 75.

ويح الغريب توشحت ألحاظه وعالم ليسوا له شبيه [1]

إن عاد لي وطني اعترفت بحقه إن التغرب ضاع عمري فيه

يصور ابن عتبة الأشبيلي تجربته المريرة في الغربة، حيث رحل عن إشبيلية إلى مصر خلال فتنة ابن هو التي اضطرمت في الأندلس ولكنه لم يلق في دار هجرته معاملة حسنة وانتابه الإحساس بالخمول والضيم وهاله استبداد النصارى واليهود بكثير من المناصب والأعمال فقال في ذلك:

أصبحت في مصر متضاماً أرقص في دولة القرود

وا ضيعة العمر في أخير مع النصارى أو اليهود

أود من لؤمهم رجوعاً للغرب في دولة ابن هود [2]

تدل أشعار الأندلسيين على أن نزعة الحنين ضربت بجذورها في أعماقهم وأنها أخذت بعداً عميقاً في نفوسهم، فنلاحظ أن الإحساس بالغربة كان يسيطر على الشاعر حين يرحل من مدينة إلى مدينة أخرى في داخل الأندلس مما يدل على شدة تعلق الأندلسيين بوطنهم، ويؤكد انتماءه العاطفي إلى هذا الوطن. فهنالك قصائد كثيرة نظمها الشعراء في التشوق إلى مدنهم على الرغم من أنهم كانوا يعيشون في مدن أندلسية أخرى كانت لا تقل جمالاً عنها. ومن الغريب أن هذه القصائد تتميز بشحنة كبيرة من العواطف المتدفقة والمشاعر الحادة، حيث يصعب علينا أحياناً أن نفرق بينها وبين القصائد التي نظموها

([1])دراسات في الأدب الأندلسي،العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003، ص 144

([2])الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات،الدكتور فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011، ص 107.

بعد أن فارقوا أوطانهم ويمكن أن تعد من هذا النوع كثيراً من قصائد ابن سعيد مثل قصيدته التي نظمها بمرسية يتشوق إلى ربوع إشبيلية[1].

ومثل قصيدته التي نظمها بمالقة يتشوق فيها إلى الجزيرة الخضراء وقصيدته التي قالها بقرموتة متشوقاً الى غرناطة [2] ويندرج تحت هذا الضرب أيضاً قصائد الرصافي التي يتشوق فيها إلى بلنيسة ومعاهدها كالرصافة والجسر وهي تنطوي على إحساس عارم متدفق بالحنين إلى بلدته التي ولد بها ونشأ في أحضانها على نحو ما يبدو في قوله:

بلادي التي رتمت قويدمي بها فريخاً وآوتني قراءتها وكرا
مبادئ ليت العيش في ريف الصبا أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكرى [3]

وقد وردت لبعض شعراء الأندلس أشعار في الحنين إلى المشرق ولكن هذا كان عند أول عهدهم بالأندلس وقبل أن تصبح هذه البلاد الجديدة الأم والوطن ومن هذه النصوص قول عبد الرحمن الداخل:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر مني السلام بعضي لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن حفوني غمضي
فقد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي [4]

([1])نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت، ج 2 ، 1968مص 307.

([2]) المرجع السابق، ص 307

([3])ديوان الرصافي، البلنسي ابو عبدالله محمد ابن غالب البلنسي ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، 1960م ص 69.

([4])دراسات في الأدب الأندلسي،العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003،ص 50.

ملخص موجز عن المبحث

الشكوى الذاتية الطابع:

اتخذت شكوى شعرائنا أبعاداً عديدة وأشكالاً كثيرة وهنا يمكن حصر موضوعات شعر الشكوى عند الشعراء المرابطين في الآتي:

أولاً: الشكوى الذاتية الطابع تشمل:ـ

الشكوى من الغربة والحنين إلى الأوطان:

فقد يشكو الشاعر الغربة والفراق والبعد عن الوطن والأهل والخلان.

نلاحظ أن أشعار الشكوى من الغربة ومعاناة الارتحال عند شعرائنا تمتزج في بعض الأحيان بوصف حنينهم إلى أوطانهم وشوقهم إلى مرابع أهلهم وخلانهم، إلا أن السمة المميزة عندهم هي الشكوى من الغربة داخل الوطن، والتبرم من العيش في ربوعه، وبين الأهل وأفراد المجتمع فغادر أكثرهم أرض الوطن بحثاً عن رزق أفضل وعيش هانئ، وتطلع نحو المجد والشهرة التي حرموا منها في وطنهم كما تحدث الشعراء عن المتاعب والآلام التي تعرضوا لها في مواطن الهجرة، ووصف ما قوبلوا به من جفوة وتعب في المعاملة، ويلاحظ أنهم يكثرون من ترديد الشكوى في سوء معاملة المشارقة لهم فكانت صفة المغربي التي تلتصق بهم وتؤرقهم؛ لأنها كانت في نظر بعض الناس تقترن بالجفوة والخشونة.

أولاً: إن شعر الشكوى كان مزدهراً علمياً وأدبياً في العصر الأندلسي.

ثانياً: إن أهل الأندلس طيلة ثمانية قرون متلاحقة كانوا يعيشون في تيارٍ من القلق والحذر الأمر الذي جعل ذلك كله ينعكس على الشخصية الأندلسية

ثالثاً: الشاعر الأندلسي عانى من مرارة الهجران ووجع الشكوى، كما عانى من التعاسة والخوف والغربة والحنين، تعدد هذه العلل مثَّل أرضاً خصبة لقول الشعر المملوء بالشكوى.

على المهتمين بالأدب النظر في الأدب الأندلسي عامة، وشكوى الأدب خاصة، للوقوف على ما لم يقف الباحثُ عليه.

على الباحثين أن يتوجهوا إلى دراسة شعر الشكوى في الأندلس في عصر الموحدين، وتوضيح كيف ازدهرت حركة التأليف الأدبي في ذلك العصر بشكلٍ منقطع النظير في تاريخ الأدب الأندلسي.

المبحث الثاني

الشكوى القومية الطابع

أولاً: الشكوى من الدهر وأهل الدهر:

ليست شكوى الدهر جديدة في الأدب العربي، فقديماً أشتكى منه شعراء الجاهلية والإسلام، ووقفا منه موقف العداء والصدام، فالمعركة دائمة أزلية بينهما، والإنسان هو المهزوم الوحيد فيها، والخاسر الضعيف أمام بطش الزمن وجبروته ومفاجآته الكثيرة التي يحملها بين طياته، وقد تحول هذا الصراع إلى موقف فلسفي لدى بعض شعراء المشرق، يعبر عن ثقل وقع عقارب الزمن على حواس البشر، معطياً تلك العلاقة عمقاً فكرياً تأملياً، ابتداءً من طرفة ولبيد وانتهاءً بالمتنبي وأبي العلا المعري، ولكننا لا نجد لدى شعرائنا ذلك العمق الفلسفي في نظرتهم إلى الزمن وأحداثه، وإنما كانوا يقفون عند سطوح الأشياء، أي عند بصمات الدهر التي يتركها وراءه على الموجودات وعلى الإنسان خاصة، كالشيب مثلاً، وتقوس الظهر، والضعف والعجز، وفقدان الحواس، إلى ما هنالك من تهديم وتهشيم وتغير، يعتري الإنسان ويصيبه وللدهر فيها يد طولى، وقد خلف الإحساس بضعف الإنسان وعدم إمكانية التحدي أو الوقوف بصلابة وعناد أمام الأحداث مردوداً سلبياً انهزامياً لدى البعض.. بلغ عند غيرهم حد العداء والكره لكل شيء في الوجود بما فيه الناس[1].

وإذا التفتنا إلى قصائد شعرائنا في الشكوى من الدهر، فإننا نجدها مشبعة بالأنين والآهات، مثقلة بالآلام والصرخات، نتيجة ما جرته عواديه على أصحابها من إحن

([1])الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية، د. خالد بابكر هاشم الدرديري ، ص 106

ومحن وأهوال وخطوب، فأخذوا يندبون ضعف وقلة حظهم في هذا الدهر القاسي الذي أناخ كلاله عليهم؛ بل إن منهم من غدا يلعن الزمان وأهل الزمان، فابن حمديس يقف حائراً أمام تناقضات الدهر، فالمحسن فيه مسيء، ولا يجد الثواب على أعماله وقد أضحت طباع الزمن مُرة لا تُطاق، حتى أنها تمرر الماء العذب في فمه، وقد أبدله زمنه القاسي عن مقامه آمناً هانئاً مع قومه، صحبة أناس كالذئاب وقد وجد فيه ذلك الجليس على خلافه، فأصبح لا يجالس إلا الكتاب؛ لأنه لم يجد الصديق الوفي المخلص الذي يخفف عنه وحشة الزمان، ويقف إلى جانبه عند الملمات فوجود الصديق الوفي في هذا الزمن أصبح أبعد وأصعب من وجود عنقاء المغرب:

وقفت من التناقض متريباً وقد يقف اللبيب إذا اشرابا

كأن الدهر محنة مسيء فيما يجزى على عمل ثوابا

وفي خلق الزمان طباع خلق تمرفي فمي التعب العذابا

وقد بدلت بعد سراة قومي ذئاباً في الصحابة لا صحابا

وألفيت الجليس على خلافي فلست مجالساً إلا كتابا

وما العنقاء أعود من صديق إذا خبث الزمان عليك طابا [1]

مثلما أساء الشاعر الظن بالزمان، أساء الظن كذلك بأهل الزمان، فقد ملأ الشر قلوبهم، وأصبح الغدر ديدنهم، فاستوحش الشاعر منهم وآثر العزلة والابتعاد عنهم وركن إلى حياة الرهبان:

([1])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 15.

ولما رأيتُ الناس يُرهب شرهم وتجنبتهم واخترت وحدة راهب[1]

بل إنه صار يستوحش حتى من كلام الناس ويستأنس بمعاشرة ذئاب الصحراء الضارية:

مستوحشٍ من كلام الإنس تؤنسه حتى من جوع من ذئاب المهمة الطلُسِ [2]

ويشارك الإمام الفقيه أبو بكر بن عطية[3]ابن حمديس في الرأي القائل بالنفور من الناس والتحذير منهم والتحظير بهم، والاستئناس بالذئاب بدلاً منهم، حيث يقول:

كن بذئب صائد مستأنساً وإذا أبصرت إنساناً ففِرْ

إنما الإنسان بحر ما له ساحل فاحذره إياك الغرر

واجعل الناس كشخصٍ واحدٍ ثم كن من ذلك الشخص حذر [4]

كم هو عجيب أن يرث ابنه الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية عنه هذه النظرة السوداوية المتشائمة من الناس بل من الزمان فقد قال:

داءُ الزمان وأهلُهُ داءٌ يعز له العلاجْ

أطلعتُ في ظلمائه وُدّاَ كما سطع السراج

لصحابة أعيي ثقا في من متانهم اعوجاج

([1])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبدالجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 30.

([2])المرجع السابق، ص 285.

([3])غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من الفقهاء الزهاد المحدثين، رحل إلى المشرق، واتصل بكثير من العلماء، وبرع في صياغة الشعر، وكانت وفاته سنة 518هـ، ص 36.

([4])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ. 1989م ج 8، ص 36

أخلاقهم ماءٌ صفا مرأيٍ ومطعمهم أُجاجْ

أبيات من الشعراء الصعاليك:

الشنفرة :

أَقيمُوا بَني أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

فَقَدْ حُمَّت الحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ وَشُدَّتْ لِطيّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

وفي الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

لَعَمْرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهْوَ يَعْقِلُ

ومن الشعراء الذين عالجوا الشكاية من الزمان وأهله في شعرهم، ابن الزقاق، فقد نظم العديد من القصائد والمقطعات في هذا اللون، ففي إحدى قصائده يقرر لنا أن بينه وبين الدهر حرباً وخصومة طويلة الأمد، وفيها يتعجب من صروف الليالي التي أصبحت ترفع الأنذال، وتحط من قدر الأبطال. كما يشكو من زمانه الذي بخسه حقه، ومن النفاق الذي ملأ كل الدنيا، فمن لا يصانع ويداجي لا يمكنه أن يحقق أحلامه وأمانيه لذلك فهو قانع راضٍ بحاله، ولا يستجير لخلقه أن يتملق وينافق، ويقف ابن الزقاق في هذه القصيدة وقفة طويلة أمامتناقضات الحياة ومفارقتها ليبرر إخفاقه في الحصول على الثراء والفن، وانزوائه بعيداً خاملاً مهملاً حيث يقول:

وهذا الدهر سوف يكون بيني وبين خطوبه عتب طويل

وفيما قد بلوت من الليالي عزاءٌ أن يلازمني الخمول

دوائرها ترفع كل نذلٍ وتخفض من له مجدٌ أثيل

كما حلت وهاد الأرض أسد وحلت في بواديها وعول

فمن وغدٍ يلاطفه أدب ومن قدمٍ يصانعه نبيل

وما خير المعيشة لأبي إرب إذا افترقت إلى الجهل العقول[1]

وقد نلت التجمل في زمان قبيح عند أهليه الجميل

شراب المعلوات به سراب ومشجع الندى طلل محيل

وإعلام المودة طامسات فلا عيش يسر ولا خليل

وأرى أخي إخاءٍ لا يداجي وأي حليف عهد لا يحول

وفي قصيدة أخرى يقرر أن النفاق أصبح طابع الناس عامة فهم يتلونون كتلون الحرباء، حيث يبدون اللين والمحبة والود ولكن قلوبهم تنطوي على البغض والضغينة والحقد، تماماً كالجمر الذي يكون تحت الرماد:

وبنو الزمان وإن بدا ملق لهم أضغانهم كالجمر تحت رماد[2]

ويحس شاعرنا في قصيدة أخرى بأن الأيام تغيرت؛ بل تغير حتى أقربائه وجيرانه لهذا فقد أصبح لا يأمن جانبهم ويخشى غدرهم، ويقول إن تصاريف الزمن وتقلباته علمته ألا يصادق الناس؛ لأن صداقتهم ومعاشرتهم لا طائل من تحتها، ولا منفعة ترجى من

([1])ديوان ابن الزقاق، ابو الحسن علي ابن إبراهيم ابن عطية بن مطرف اللخمي ، تحقيق : عفيفة محمود ديراني، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان ، 1409هـ_1989م، ص 231.

([2])ديوان ابن الزقاق، ابو الحسن علي ابن إبراهيم ابن عطية بن مطرف اللخمي ، تحقيق : عفيفة محمود ديراني، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان ، 1409هـ_1989م، ص 148.

ورائها، ويقول أيضاً إنه كان قديماً يبكي لفراق الأصدقاء، وأما اليوم فإنه يفرح لفراقهم ويهش لرحيلهم. ويقرر أخيراً . كما قرر ابن حمديس والفقيه أبوبكر بن عطية من قبل . الابتعاد والانزواء بعيداً عن بني البشر، وألا يألف إلا الصحاري، وألا يرافق إلا سيفه إذ يقول:

تغرت الأيام حتى تغيرت بها أقربائي غدرة وأجانبي[1]

وعلمني صرف الزمان وريبه بأن اقتناء الناس شر المكسب

وكنت إذا فارقت إلفاً بكيته بكاء عدي صنوه بالذنائب

فها أنا إن أشعرت رحلة ظاغي تلقيته منها بفرحة آيب

فلم تحمل الغبراء أنجب من فتى رمى غير أعلام العلا بالنجائب

ولا صحبت كفي على دلج السرى أبر وأوفى من رقيق المضارب

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً ابن صارة الذي يذكر لنا في إحدى قطعه أن الدهر تنمر عليه، وقلب له ظهر المجن، ولكنه، مع ذلك، سيقف أمام قسوة الزمن متحدياً وينال كل ما يريد ولو كان في هالة القمر وحتى إذا لم يقضِ له مطالبه، فإنه سيلجأ إلى القضاء ليحكم له على الدهر

تنمر الدهرُ حتى ما فرقت له من قسوري الدجى في فروة النمر

لا بد أن يقع المطلوب في شركي ولو بني داره في دارة القمر

قاضي الجماعة في دار الإمارة لي قاضٍ على الدهر إن لم يقضِ وطر[2]

([1])ديوان ابن الزقاقابو الحسن علي ابن إبراهيم ابن عطية بن مطرف اللخمي ، تحقيق : عفيفة محمود ديراني، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان ، 1409هـ_1989م، ص 75.

([2])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م ج 4،ص838.

وفي قطعة أخرى يشكو ابن صارة من عدم إنصاف الدهر له، سلبه حقوقه، وحطه من قدره لذا تراه يمل حرفته «الوراقة»؛ بل ويلعنها فهي أنكر حرفة، ولا يجني صاحبها سوى الحرمان، ويشبه صاحبها بإبرة الخائط التي تكسو العراة وجسمها عريان قائلاً:

أما الوراقة فهي أنكل حرفة أغصانها وثمارها الحرمان

شبهت صاحبها بإبرة خائط تكسو العراة وجسمها عريان [1]

بل يتمنى لو أنه كان جاهلاً؛ لأن الجهالة، وبرغم ازدراء الناس لها، تجلب الفن والسعادة، بل إن الدنيا بأكملها تجثو لها رغماً عن أنفها:

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهافتوا بحديثها في المجلس

وهي التي ينقاد في يدها الفتى وتجيئها الدنيا برغم المعطس

إن الجهالة للغنى جذابة جذب الحديد حجارة المغنطس [2]

نلحظ من كل ما أوردناه، أن الشكوى البائسة المستسلمة هي الطابع السائد في شعر شعرائنا، وقلما نجد عندهم التحدي والصمود أمام نكبات الدهر وصروفه مثل قطعة ابن صارة الأولى، وكأبيات أبي عامر بن ينق [3] المتوحشة بابتسامة أمل وثقة وكبرياء، فقد قال ضمن قصيدة له:

حسبي من الدهر أن الدهر ينتج لي بكر الخطوب وإني عاثر الأمل

دعني أصادي زماني في تغلبه فهل سمعت بظل غير منتقل؟

([1])المرجع السابق، ص 280.

([2]) .قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م ج 4، ص 811

([3])هو أبو عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن نبق، حذق علوم عصره في الأدب والبلاغة، ولازم أبا العلا بن زهر فأخذ عنه علوم الطب فمال إليه الناس، أظهر ميلاً إلى التأليف، فصنف في الحماسة وفي ملوك الأندلس وأعيانها وشعرائها، وتوفي سنة 547هـ، انظر القلائد: ج 8 ص 552، وانظر الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: 264/3، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1355هـ.

وكلما راح جهماً رحت مبتسماً والبدر يزداد إشراقاً مع الطفل [1]

ومن الظواهر المهمة التي أرهقت أعصابهم و إحساسهم، وأقلقت بالهم، وقضتمضاجعهم، وزادت من تحسرهم ولوعاتهم؛ لأن العيش بالنسبة لهم نذير بأفول الشباب والكبر والضعف، وبالتالي انعطاف . لا مفر منه . نحو أعماق الصمت والفناء. فالشكوى من الشيب عادة ما تأتي ضمن الشكوى من الدهر والتحسر على أيام الشباب الناضرة، وليالي الصبا الزاهرة وإظهار الأسى والحزن مما يخلفه هذا القتير الذي يشتعل في المفارق من هموم وغموم. فالشيب . كما يقول . الأديب الأندلسي أبو القاسم بن العطار ـ أثر من آثار الصراع والحرب الأزلية بين الناس والزمن:

بين الورى وصروف الدهر ملحمة وإنما الشيب في هاماتهم دمج [2]

ولعل أكثر شعرائنا تناولاً لظاهرة الشيب، هما ابن حمديس وابن خفاجة، ففي ديوانيهما العديد من القصائد والمقطعات التي تصور الشكوى من الشيب.

فهذا ابن حمديس يشكو من الشيب الذي أنبته الدهر في مفارقه، مما زاد قلبه هماً وغماً:

أنبت الدهر في المفارق شيباً بهمومٍ وفي مصغد القلب يزرع [3]

ويقول أيضاً:

بكى الناس قبلي فقد الشباب بدمع القلوب فما أنصفوه

([1])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م ج 2، ص 552

([2])قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م ، ج4، ص 886.

([3])ديوان ابن حمديس أبو محمد عبد الجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960، ص 306.

وإني عليه لمستدرك من البين والحزن ما اهملوه [1]

لعمرك ما الشيب إلا يدا يقود بك إلا الردى أو أبوه

ألم تر أنك بين الشباب كمن مات أو غاب من شببوه

اشتكى شعراؤنا أيضاً من الأمراض والعلل التي كانت تحل بهم، وتنهك قواهم، والعلة قد تكون وقتية تزول بزوال أسباب وجودها، وقد تكون علة أزلية ملازمة كالعمى، فمن الشعراء الذين اشتكوا من المرض ابن ولاد الذي قال في علة طاولته[2]:

ملَّني العائدات والعواد وجفاني الكرى فليلي سهادُ

قد ألفتُ الفراش حولاً عليلاً وبكبدي من السقام كباد

إنما الداء والدواء من الله ولئن كان للطبيب اجتهاد

أما العلة الملازمة، فقد تألم منها الأعمى التطيلي، حيث قال يشكو حرمانه من نعمة البصر

أما اشتقت مني الأيام في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري

ولا قضت من سواد العين حاجتها حتى نكر على ما كان في الشعر [3]

([1])المصدر السابق، ص 519.

([2])تحفة القادم، ابن الأبار القضاعي، أعاد بناءه وعلق عليه، د. إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1406هـ – 1986م، ص 38.

([3])ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق:د. إحسان عباس ، نشر دار الثقافة ، ط1، بيروت ، 1936، ص 46

ثانياً: الشكوى من السجن والنفي والأسر:

(أ) الشكوى من السجن والنفي:

كان الابتلاء بهذا اللون من الفتن والنكبات أوسع الألوان انتشاراً، وأكثرها وقوعاً للشعراء في الأندلس، وكان يعقبها في أغلب الأحيان مصادرة الأموال، وتشريد الأهل والأولاد، وربما تنتهي بالقتل غيلة تحت جنح الظلام وراء القضبان أو علانية بعد محاكمة صورية الغلبة فيها للأقوى، والأقوى هنا هو القابض على نواصي السلطة بيد من حديد [1] ، وقد تنتهي كذلك بالتغريب والنفي عن الوطن.

وترجع الأسباب التي تحمل السلطة الحاكمة إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات الصارمة القاسية إلى عدة أسباب منها: المعارضة السياسية، وتهمة الرهق في الدين كالإلحاد والزندقة، أو بسبب وشايات الوشاة الذين تدفعهم الغيرة والحسد إلى الإيقاع بين الشاعر وممدوحه الملك أو الأمير، أو بسبب الغيرة التي تشيد بالحاكم من الشاعر بسبب علو مكانته وسمو منزلته بين الناس، أو الحقد والكراهية التي تنشأ عادة بسبب تطاول الشاعر على أمير أو حاكم، أو جرأته عليه ووقوعه في عرضه بالهجاء المقذع الذي يثير غضب ولي الأمر ويدفعه إلى الانتقام منه. وغيرها من الأسباب... ولكن غالباً ما يكون السبب سبباً سياسياً كالمعارضة والثورة وإعلان التمرد على السلطة الحاكمة، وقد ذكرنا في غير موضع من دراستنا هذه أن نظام الحكم المرابطي وجد معارضة شديدة من قبل بعض الرموز الوطنية الأندلسية وكان من بينهم الفقهاء والشعراء والعامة، فكان نتيجة هذه المعارضة والثورة أن وقع الكثير من هؤلاء المعارضة الثوار في قبضة

([1])الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، الدكتور فاضل فتحي محمد والي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1417هـ. 1996م،ص 418.

السلطة المرابطة الحاكمة فحكم على بعضهم بالسجن وبعضهم الآخر بالنفي والتغريب عن البلاد، بل إن منهم من دفع حياته ثمناً لموقف جريء اتخذه أو كلمة حق قالها.

من الشعراء الذين ابتلوا بمحنة السجن أبوبكر بن أحمد بن عبد الحق بن الجنات[1].

الذي جرت عليه محنة دخل على إثرها السجن مكبلاً بالقيود، وعذب فيه ثم قتل وقد وجدت على جدار سجنه أبيات كتبها بقطعة من الفحم لما أيقن أن ساجنيه سيقتلونه لا محالة، وفي هذه الأبيات يشكو ابن الجنان إهمال قومه له وهو أسير بدار الهوان، كما صور ماتعرض له من إذلال وتعذيب في سجنه تصويراً رائعاً، وهذه الأبيات تتسم بالواقعية وصدق التجربة الشعورية؛ لأنها صدرت عن رجل ينتظر قتله بين لحظة وأخرى، حيث يقول:

ألا درى الصيد من قومي الصناديد أني أسير _بدار الهون– مقصود

لا أبسط الخطو إلا ظل يقبضه كبل –كما التفت الحيات– معقود

وقد تألب أقوام لسفك دمي لايعرف الفضل مغناهم ولا الجود [2]

ومن الشعراء الذين امتحنوا بالتغريب والنفي أبو مروان عبد الملك بن محمد بن الشماخ الغافقي[3]الذي أخرج من بلده إشبيلية قهراً وقسراً، ولكن ذكراها لم تغب عن باله، وظل

([1])عاش هذا الشاعر في الفترة ما بين 499 . 543 تقريباً ولم يعثر له على تاريخ ولادة ولا وفاة، وكل ما قيل في ترجمته أنه كان شاعراً مطبوعاً متين السبك حسن الصياغة مبدعاً في الصنعة يجيد المقطعات، وأكثر شعره في المدح والحكمة والغزل. انظر المغرب: ج 2 ص 382، انظر د.عمر فروخ تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين بيروت، لبنان ج 5 ص 251، وما بعدها.

([2])المغرب في حلي المغرب ابن سعيد المغربي تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر، ط 3، (د.ت): ج2، ص 382

([3])ترجم له ابن بسام في الذخيرة 827/2/1 وقال عنه : (وأبو مروان هذا أحد من شافهته وذاكرته، وأنشدني شعره، وكان باهر الضوء صادق النوء، ينفث السحر، في عقد النظم والنثر، ويوفي على أنواع البديع إيفاء على محاسن فصل الربيع، إلى علم أعذب من الماء وأكثر من حصى الدهناء..)

يتحسر عليها ويسأل عن أحوالها، ويتلهف لسماع أخبارها، ويحن إلى مرابع الصبا، ومراتع الشباب ويبكي فراق الأهل والخلان، ويتساءل بحرقة ومرارة:

هل هم يسألون عنه يأسون له كما هو يسأل عنهم أم أنه أصبح في طي النسيان؟ حتى غدا ليأسه وقنوطه في الاجتماع بهم والعودة الى بلاده يؤمن بالفأل.. ويتضح من قصيدته أنه أقام حولين كاملين في منفاه، صور ما اعتراه فيها من آلام وأحزان وأهوال وضياع وخمول وفراغ قاتل، حيث يقول في بعض أبياتها[1]:

ياليت شعري هل دامت لهم حال عهدتها في حفاظ العهد أم خالوا؟

فإن تكن سائلاً عمن تركت فقد شاب الشباب وقد شب الأطفال

صبرت والبعد أهوال وذا عجب ولم أكن صابراً والبعد أميال

أرجو الإياب لفأل فيه أسمعه والدهر يفعل ما لا يخبر الفأل

اقمت حولين فيه خاملاً خرساً كأنني وأنا السلسال صلصال

ب:شكوى الأسر:

ليس اشق على المحارب الشجاع، ولا الفارس النبيل من وقوعه أسيراً في يد أعدائه، فبطن الأرض خير له من ظهرها، وشعار الفارس دائماً: (المنية ولا الدنية) ولكن الظروف قد تكون قاهرة مما يوقع هذا الفارس أو ذاك في الأسر، وهذا لا يقلل من

(1)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1978–1979. ط1، ج2، ص846.

شجاعته وجرأته، والأسر كان يحدث نتيجة حروب تنشب إما بين طائفتين عربيتين مسلمتين أو بين المسلمين والنصارى، أو بين العرب والبربر؛ لأن الفتن كما نعلم لم تتوقف في الأندلس منذ الفتح حتى السقوط؛ بل كانت كموت النار تحت الرماد في بعض فترات قوة الحكام، وما إن تجد ثغرة ضعفت حتى تشب مرة أخرى[1]:

فمن شعراء فترتنا الذين امتحنوا بالأسر ابن سوار الأشبوني [2]فقد ساقه سوء طالعه إلى الوقوع في قبضة الفرنجة أسيراً إبان ما عرف بفترة حروب الاسترداد، وهي الفترة التي توالي سقوط المدن الأندلسية فيها مع بدايات القرن الخامس الهجري، وقد نقل عقب أسره إلى السجن مكبلاً بالقيود والأغلال في مدينة قورية من عمل الطاغية ابن فرذلند، وبقي معتقلاً عاماً كاملاً أسود من ليل الشتاء الطويل المظلم حتى اقتدى نفسه بأهل المروءة . بعد الله . في دفع الفدية وفك أسره وإطلاق سراحه ومنحه حريته، وكان قد كتب في محبسه رسالتين شعريتين، الأولى بعث بها إلى القاضي عبد الله بن محمد بن حمديس قاضي قرطبة اللذين لم يتوانا في نجدته وتوفير المال اللازم لفديته.

والقصيدتان مضمونهما واحد وهو وصف كيفية وقوعه في الأسر، وتصوير ما تعرض له في معتقله من شتى صنوف التعذيب النفسي والبدني، وما لاقاه من ألوان الذل والهوان، كما أسهب في الشكوى من سوء ما ألم به واساه على ما أصاب أمه وأخواته

([1])الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، الدكتور فاضل فتحي محمد والي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1417هـ . 1996م،صـ 436

([2]) هو الوزير الكاتب أبو بكر محمد بن عيسى بن سوار الأشبوني، ترجم له ابن بسام في الذخيرة 811/2/2 وقال عنه: (كان يقول الشعر تحبباً لا تكسباً، وكان يمدح ملوك الطوائف وفاء لا استجداء...)

الباكيات من حزن عليه والقصيدتان إلى جانب ما تمتازان به من الصدق والواقعية فإنهما تتسمان بأسلوب السرد القصصي حيث يقول في الأولى[1]:

وأحدق بي والموت يكشر نابه ومنظره جهم وناظره شزر
فأعطيتها وهي الدنية صاغراً وقد كان لي في الموت لو يدني عذر
فطاروا وصاروا إلى مستقرهم يصاحبني ذل ويصحبهم فخر
فجاءوا بأنواع الكبول ونظموا سلاسل في جيدي كما ينظم الدر
وساقوا كلاباً كالفحولة أجسماً لها أعين خضر ملاحظها شزر
فضاقت علي الأرض حتى كأنها بما رحبت ما كان في طولها فتر

ويتضح من قصيدته الثانية أن أخاه تطوع ليحل مكانه كرهينة حتى يتمكن من تدبير ما طلبوه منه، يقول[2]:

قالوا: اعطنا ألفا فقلت: مضاعفاً لما رأيت الموت ملء جفوني
فبقيت عاماً في الإسار مصفداً بسلاسل ضرباً من التنين
لما يئست ولم تكن لي حيلة أرسلت في ابن أبي فكان ضميني
وتركته بيد العدو موثقاً في ذل أغلال وضيق سجون
وردت رسائله علي فتارة يشكو إلي وتارة يشكوني
ولنا أخيات وأم أثكلت وأخاف قبل الجمع وشك منون

([1])الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1978–1979. ط2، ج2، ص 815 .

([2])الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات، الدكتور فوزي عيسى، ، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011، ص 103

ملخص موجز عن هذا المبحث

الشكوى القومية الطابع

الشكوى من الدهر وأهل الدهر: أ-

نجد أن شكوى شعرائنا (المرابطين) مشبعة بالأنين والآهات، مثقلة بالآلام والصرخات، نتيجة ما جرته عواديه على أصحابها من إحن ومحن وأهوال وخطوب، فأخذوا يندبون ضعف وقلة حظهم في هذا الدهر القاسي الذي أناخ كلاله عليهم؛ بل إن منهم من غدا يلعن الزمان وأهل الزمان.

كما نجد أن الشكوى البائسة المستسلمة هي الطابع السائد في شعر شعرائنا، وقلما نجد عندهم التحدي والصمود أمام نكبات الدهر وصروفه.

ب- الشكوى من السجن والنفي:

كان الابتلاء بهذا اللون من الفتن والنكبات أوسع الألوان انتشاراً، وأكثرها وقوعاً للشعراء في الأندلس، وكان يعقبها في أغلب الأحيان مصادرة الأموال، وتشريد الأهل والأولاد، وربما تنتهي بالقتل غيلة تحت جنح الظلام وراء القضبان أو علانية بعد محاكمة صورية الغلبة فيها للأقوى، والأقوى هنا هو القابض على نواصي السلطة بيد من حديد ، وقد تنتهي كذلك بالتغريب والنفي عن الوطن.

ج- شكوى الأسر:

ليس أشق على المحارب الشجاع، ولا الفارس النبيل من وقوعه أسيراً في يد أعدائه، فبطن الأرض خير له من ظهرها، وشعار الفارس دائماً: (المنية ولا الدنية) ولكن الظروف قد تكون قاهرة مما يوقع هذا الفارس أو ذاك في الأسر، وهذا لا يقلل من شجاعته وجرأته.

الخاتمة

أولاً: النتائج:

أهم ما تُوُصِّل إليه من نتائج خلال الدراسة:

أولاً: إن شعر الشكوى كان مزدهراً علمياً وأدبياً في العصر الأندلسي، كذلك نجد ازدهاراً كبيراً في كل الفنون الأدبية، فقد عالج الشعراء والكُتَّاب البلاغة والنقد، فالأندلس منذ بداية تاريخها إلى نهاية الفترة الإسلامية فيها هي ومَن عليها يتعرضان للرزايا وكثرة المصائب، كما أن أهل الأندلس عامتهم وخاصتهم قد عانوا كثيراً من التشريد والتنكيل ما أدى إلى وجود شكوى في شعرهم.. كما أن للطبيعة التي تناولها الإنسان الأندلسي أثراً واضحاً وفعالاً في انتشار شعر الشكوى؛ لأن الإنسان الأندلسي مرهف الأحساس رقيق الحال.

ثانياً: إن أهل الأندلس طيلة ثمانية قرون متلاحقة كانوا يعيشون في تيارٍ من القلق والحذر الأمر الذي جعل ذلك كله ينعكس على الشخصية الأندلسية.

ثالثاً: وجود الكثير من العلل التي عانى منها الإنسان الأندلسي، حيث سببت له توتراً أدى إلى عدم الاستقرار النفسي، ما جعله يشكو في ما أنشأ من شعر.

رابعاً: الشاعر الأندلسي عانى من مرارة الهجران ووجع الشكوى، كما عانى من التعاسة والخوف والغربة والحنين، تعدد هذه العلل مثَّل أرضاً خصبة لقول الشعر المملوء بالشكوى.

خامساً: إذا كان الشعر تعبيراً عن العواطف أو هو فيضٌ تلقائي لمشاعرٍ قوية، فإن الشاعر الأندلسي قد سخر فكره ليكون مرآة عاكسة لما كان بدواخله أو مكنوناته، وهي

مكنونات قد أصابها القلق، فكان ذلك العطاء صورة صادقة لما في النفس، أو لما كان ذلك الشاعر يشعر به، وهذا العطاء قد جعلنا وكأننا نعايش أولئك القوم بما هم فيه.

مما نتج من خلال البحث والاطلاع هو أن الشعر الأندلسي يعد صورة لأهله في أوقاتهم المختلفة ليناً وشدة، حزناً وفرحاً.

ثانياً: التوصيات:

بعد الوقوف على نتائج البحث يوصي الباحث بالآتي:

1. ما زال هذا الموضوع بكراً ولا يزال الباحثُ فيه يجد ضالته، لذلك يوصي الباحث المهتمين بالأدب النظر في الأدب الأندلسي عامة، وشكوى الأدب خاصة، للوقوف على ما لم يقف الباحثُ عليه، ونيل ما لم يُرزق الباحث نيله من معلوماتٍ وحقائق عن شعر هذا العصر.
2. على الباحثين أن يتوجهوا إلى دراسة شعر الشكوى في الأندلس في عصر الموحدين، وتوضيح كيف ازدهرت حركة التأليف الأدبي في ذلك العصر بشكلٍ منقطع النظير في تاريخ الأدب الأندلسي.

فهرس الآيات

م	اسم السورة	الآية	الصفحة
	سورة البقرة		
1.	﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾	61	18و 19
2.	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾	214	16
	سورة آل عمران		
3.	﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾	154	20
4.	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	156	15
	سورة النساء		
5.	﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾	77	20
	سورة المائدة		
6.	﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾	22	18
	الأعراف		
7.	﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾	150	21
	سورة هود		
8.	﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾	32	18و 19

9.	﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾	45	16
سورة يوسف			
10	﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾	63	19
11	﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾	84	13
12	﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾	86	12و 13
13	﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾	88	19
سورة الحجر			
14	﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾	52	19
سورة طه			
15	﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾	125	20
سورة الأنبياء			
16	﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾	14	22
17	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	83	15
18	﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾	97	17
سورة المؤمنون			
19	﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾	106	21
سورة النور			
20	﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾	35	10

سورة الزمر			
21	﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾	56	22
سورة الذاريات			
22	﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾	29	19
سورة الواقعة			
23	﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾	66	17
24	﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾	67	17
سورة الصف			
25	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾	5	15
سورة الملك			
26	﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾	10	21
سورة الحاقة			
27	﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾	28	22
28	﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾	29	22
سورة القارعة			
29	﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾	4	13

فهرس الأحاديث النبوية

م	الحديث	الصفحة
1	(شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حر الرمضاء فلم يشكنا)	4
2	(شاكيت أبا موسى في بعض ما يشاكي الرجل أميره، فاعلت من الشكوى)	4
3	(شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرمضاء فما شكانا)	6

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

-القرآن الكريم

ثانياً: الكتب والمعاجم العربية

1. الأدب الأندلسي النثر، الشعر، الموشحات، الدكتور فوزي عيسى، ، دار المعرفة الجامعية، طبع ونشر وتوزيع، ط 2011
2. الأدب العربي في الأندلس، د. عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ط2، 1967
3. الأنيس المطرب في أخبار أهل المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، ابن ابي زرع أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، ط1، ج 2
4. بحوث في الأدب الأندلسي، الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، د. عبد الله بن علي بن ثقفان، مكتبة التوبة،ط1، 1417هـ . 1996
5. بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة،
6. البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ابن عذاري المراكشي، تصحيح وتعليق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.ج 4
7. تاريخ إسبانيا الإسلامية (وهو القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام)، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، طبع دار المكشوف، بيروت، 1956م
8. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دكتور إحسان عباس، طبع دار الشروق، عمان، الأردن 1997م

9. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين دكتور إحسان عباس ، طبع دار الشروق، عمان 1997م
10. تاريخ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، ترجمه وعلق عليه محمد عبدالله، مكتبة الخانقي ، القاهرة، ط 2، 1417هـ- 1996م 239/2.
11. تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية ، محمد بن يسير الرياشي يلقب بأبي جعفر، ج 2 .
12. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان ، تحقيق شوقي طيف ، دار المعارف، ج 1
13. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دكتور حسن إبراهيم حسن، مطبعة النهضة المصرية القاهرة، ج4، 1967م
14. تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط 3، بيروت،ج2، 1961م
15. تحفة القادم، ابن الأبار القضاعي، أعاد بناءه وعلق عليه، د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1406هـ - 1986م، ص 38.
16. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس«عصر المرابطين والموحدين» ص 26 - 27، دكتور حسن علي حسن، مكتبة الخانجي بمصر 1980م
17. الحلة السيراء ابن الإبار القضاعي، تحقيق دكتور حسين مؤنس، مطبعة الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة: 1963م، ج2
18. دراسات في الأدب الأندلسي، العربي سالم الشريف، دار شموع للثقافة والطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 2003

19. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1978–1979. ج 2
20. الرائد معجم لغوي عصري، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1964م، ص 890.
21. رحلة ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، دار صادر ودار بيروت،لبنان، 1960م
22. الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، أوليليوغريبة نجومي، ترجمه عن الأسبانية حسين مؤنس، ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية، (د.ت)
23. الشعر العربي في إسبانيا وصقلية، فون شاك ، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر، 1991
24. الشعر في ظل بني عباد، د. محمد مجيد السعيد النجف مطبعة النعمان 1972م،
25. الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م.
26. الشعر الأندلسي في عصر المرابطين اتجاهاته وخصائصه الفنية، خالد بابكر هاشم الدرديري ، جامعة أم درمان الإسلامية، 1421هـ_ 2000م.
27. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ – 1987م،ج6،
28. صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، طبعة، ليدن 1986

29. العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة – إيران، ط2، 1409هـ ج5
30. غابر الأندلس وحاضرها محمد كرد علي، ط مصر 1923م ص90.
31. الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، الدكتور فاضل فتحي محمد والي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1417هـ . 1996م
32. في الأدب الأندلسي، دكتور جودت الركابي طبع دار المعارف، مصر، (د.ت)
33. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي تحقيق دكتور حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ج 4، الأردن 1409هـ . 1989م ج 4
34. قيام دولة المرابطين، دكتور حسن أحمد محمود، مكتبة النهضة المصرية 1957م
35. الكامل في التاريخ، ابن الأثير تح: عبد الوهاب النجار، القاهرة، المطبعة المنيرية 1353هـ، 8 . 90، وانظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دكتور محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، ط 2، بيروت لبنان 1985م
36. لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ج5
37. المحيط، بطرس البستاني، دون مكان نشر، دون ناشر
38. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي عبد الواحد بن علي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط1، 1963

39. معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين ابوعبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1955، ج5
40. المغرب في حلي المغرب ابن سعيد المغربي تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر، ج 2
41. مقدمة ديوان ابن خفاجة الأندلسي (أبو إسحق إبراهيم ابن عبد الله)، تحقيق الدكتور سيد مصطفى غازي، مطبعة المعارف بالإسكندرية 1960م. ص 7.
42. ملحمة السيد، دكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بمصر، 1970م
43. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق دكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،ج4– ص 375
44. ثلاث كتب في آداب الحسبة والمحتسب، ابن عبدون وآخرون، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955م

ثالثاً: المجلات

1. مجلة المورد، الجمهورية العراقية ، شعر ابن بقي القرطبي : د. محمد مجيد السعيد، ج6، العدد الأول، 1977
2. مجلة النزاهة والشفافية للبحوث والدراسات، أ.د/ حسن منديل حسن،السنة الخامسة، العدد الثامن ، 2014م

رابعاً: الدواوين :

1. ديوان ابن الزقاق ابو الحسن علي ابن إبراهيم ابن عطية بن مطرف اللخمي، تحقيق: عفيفة محمود ديراني، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان ، 1409هـ_1989م

2. ديوان ابن حمديس أبو محمد عبد الجبار ابن حمديس الأزدي الصقلي ، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة دار صادر ، بيروت ، لبنان، 1960
3. ديوان ابن خفاجة ، ابو اسحق إبراهيم ابن عبدالله ، تحقيق : د. سيد مصطفى غازي، مطبعة دار المعارف بالأسكندرية ، طبعة دار الجيل بيروت، لبنان ، 1960
4. ديوان ابن عبدون الباري الأندلسي، إعداد وتحقيق سليم التنير، ط 1، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا 1408هـ 1988م
5. ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق: د. إحسان عباس ، نشر دار الثقافة ، ط 1، بيروت ، 1936
6. ديوان الرصافي، البلنسي ابو عبدالله محمد ابن غالب البلنسي ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، 1960م

خامسا: الرسائل الجامعية

1. ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب ، بن عبدون وآخرون ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، 1955م .

فهرس الموضوعات

رقم	البيــان	الصفحة
1	البسملة	أ
2	الاستهلال	ب
3	الإهداء	ج
4	الشكر والعرفان	د
5	المستخلص	هـ
6	Abstract	و
7	المقدمة	1
الفصل الأول : ضبط مفاهيم البحث		
8	المبحث الأول:**مفهوم الشكوى لغةً واصطلاحاً**	4
9	المبحث الثاني:**أسباب ودوافع الشكوى في العصر الأندلسي**	23
الفصل الثاني : التعريف بدولة الأندلس وعصر المرابطين		
10	المبحث الأول:**قيام دولة المرابطين وزوالها**	29
11	المبحث الثاني: **نبذة عن حياة الأندلسيين، الطبقات الدنيا والعليا الحياة الاجتماعية**	38
الفصل الثالث :الدراسة التطبيقية		
12	المبحث الأول:**الشكوى الذاتية الطابع**	57
	المبحث الثاني:**الشكوى القومية الطابع**	76

الخاتمة		
13	النتائج	97
14	التوصيات	99
15	فهرس الآيات	100
16	فهرس الأحاديث	103
17	المصادر والمراجع	104
18	فهرس الموضوعات	110